الجانب الغنائي في شعر ابن زيدون

دراسة تحليلية

بحث جامعي

لنيل شهادة ما قبل الدكتوراة

تقديم

محمد ابرار الحق

تحت إشراف

البروفيسور محمد أسلم الإصلاحي

مركز الدراسات العربية والإفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهر لال نهرو

نيودلهي

2006

مركز الدراسات العربية و الأفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi-110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067

DATE: 21/07/2006

DECLARATION

I declare that the material in this Dissertation entitled **"Al-Janib -ul- Ghinaio fi Sher Ibn Zaidun: Dirasah Tahliliyah"** (Lyrical Aspect in the Poetry of Ibn Zaidun: An Analytical Study) submitted by me is my original research work and has not been ever previously submitted for any other degree of this or any other University/Institution.

Mohd.Abrarul Haque
Research Scholar

21/7/06

Prof. M.A.Islahi
(SUPERVISOR)
CAAS/SLL&CS/JNU

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

24/7/06

Prof. F.U.Farooqi
(CHAIRPERSON)
CAAS/SLL&CS/JNU

Chairperson
Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة:	3
الباب الأول: الشعر في بلاد الأندلس	7
1- العرب في بلاد الأندلس	8
2-أغراض الشعر الأندلسي	25
3- أبرز شعراء الأندلس	33
الباب الثاني:ابن زيدون حياته و خدماته في مجال الشعر والنثر	38
1- عصر ابن زيدون	39
2-حياة ابن زيدون	45
3-غزل ابن زيدون في ولادة	56
4-آثار ابن زيدون في مجال الشعر	61
5- آثار ابن زيدون في مجال النثر	64
الباب الثالث: الجانب الغنائي في شعر ابن زيدون	67
1-شاعرية ابن زيدون	68
2-الحب عند ابن زيدون	83
3-فن الغزل	74
4- ميزاته الفنية	89
الخاتمة	93
المراجع والمصادر	99

المقدمة

المقدمة

لقد منح الله بلاد الأندلس سمعة طيبة في الخافقين فهي أغنى بقاع المعمورة منظرا وأوفرها جمالا وهب الله جل و علا إياها سماء صافية في ربوعها الواسعة الشاسعة المترامية الأطراف نشأ فيها الأعلام والعباقرة ورجال الفكر والدعوة والكتاب والشعراء ونوابغ التربية و الثقافة والعلوم والآداب وكذلك أعطاها الله أراضي سهلة وخصبة ذات أنهار جاريات و حدائق جميلة خضراء و ينابيع متفجرة وصحارى واسعة و جبالا شامخات وثروات بشرية و زراعية و معدنية في المناطق الكثيرة.

لقد أنجبت الأندلس علماء كبارا وشعراء أفذاذا و كتابا بارعين فلهم مساهمات جليلة في شتى مجالات العلوم و الفنون والمعارف ومن عمالقة هذه المنطقة ابن حزم وابن رشد والقرطبي وابن خفاجة وابن هانئ و أبوالوليد أحمد بن عبد الله المعروف بابن زيدون وغيرهم كثيرون.

لا ريب في أن ابن زيدون نجم تألق قبل سقوط دولة بني أمية في الأندلس وفتح عينيه في عصر سيطرت فيه على قرطبة أمراء الدولة العامرية ثم تلاهم عصر الفتنة و بنو جهور و بنو عباد وكان زمام الحكومة حينئذ بيد هشام بن حكم ولم يلبث حتى سقطت دولة بني عامر أيضا وبعد ذلك عاشت الأندلس وقرطبة في عصر الفتن والقلاقل من سنة 396ه إلى سنة 422ه

وهذا الشاعر الجليل ألا وهو ابن زيدون قد درج في بيت الثروة والأموال الطائلة والجاه العظيم و شب في أحضان الوزارة و تقلب في أعطاف النعيم يجد في هذا التعرض لذته و سعادته فيستحلى ما يقابلونه من الصد والسجن والإبعاد.

كتب العديد من الكتاب على حياة ابن زيدون وخدماته في الأدب ولكن معظمهم لم يتناولوا جانبه الغنائي و الفني و دوره في إيقاظ الحب والحنين في قلوب المتعشقين ولا مراء في أن هاتين إنهما سمتان بارزتان في شعر ابن زيدون فنجد فيه حبه لولادة بنت المستكفي التي هام بها في مطلع صباه و حبه لقرطبة المدينة التي أنجبته و قضي فيها أهنأ أيام عمره ثم حنينه الشديد إليهما بعد فراقهما لقد تجلت عبقرية ابن زيدون الشعرية وأصالته الفنية في قصائد حبه و حنينه التي بوأته مكان الزعامة بين شعراء الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي ولكن من العجب أن المولفين الكبار لم يعتنوا بهذا الجانب الغنائ و مع أن هذا الجانب هام لتوفير المواد الأدبية الشعرية الذي أغفل الكتاب عنها بوجه عام ولهذا السبب كله انتخبت هذا الموضوع و حاولت أن ابرز الجانب الغزلي و الغنائ لشعر ابن زيدون مع التركيز الخاص على حبه لولادة لأنها قد لعبت في حياة الشاعر دورا فعالا لإنشاء تخليقات بديعة في مجال الشعروالأدب.

وعلى أية حال فإنني حاولت في هذا البحث الوجيز أن أقدم أمام القراء مع الجانب الغنائ أكثر نواحي حياة ابن زيدون الأدبية لكى تتجلى عظمته ومكانته المرموقة في مجال الشعر والأدب وتحقيقا لهذا الهدف قسمت هذه الرسالة إلى مقدمة و ثلاثة أبواب وخاتمة.

أما الباب الأول فقد ألقيت فيه نظرة غائرة على تاريخ الشعر في الأندلس و تحدثت فيه عن نزوح العرب إلى الأندلس وألقيت فيه الضوء على حالتها الاجتماعية و السياسية قبل مجئ الإسلام إلى هذه المنطقة وقد ذكرت فيه أيضا طبقات الناس في الأندلس و كتبت عن ملوكها و أعظم شعرائها إلى جانب ذكر الحضارة الأندلسية و الشعر العربي وفيما يتعلق في نهاية الباب أبرزت أغراض الشعر الأندلسي الأدبية.

وفيما يتعلق بالباب الثاني ناقشت فيه حياة ابن زيدون و خدماته في مجال الشعر و النثر فقد تحدثت فيه عن عصر ابن زيدون و نشأته وتكوينه و دراسته و حبه لولادة وغزله في وصفها ومودتها وفي نهاية الباب استعرضت آثاره في مجال الشعر والنثر.

أما الباب الثالث وهو من أهم الأبواب فقد بحثت فيه عن الجانب الغنائى الموجود في شعر ابن زيدون كما تحدثت فيه عن شاعرية ابن زيدون و مكانته الأدبية بين كافة شعراء الأندلس ثم ناقشت فنونه الشعرية المختلفة وآراءه عن الحب و أغراضه المتنوعة في الشعر وفي ختام البحث تحدثت عن الميزات الفنية لشعره.

ومع هذا كله لا بد من الاعتراف هنا بأن الموضوع الذي تناولته للبحث هوموضوع ذو أهمية بالغة إذ له علاقة وطيدة بالباب الخاص لتاريخ الأندلس ومن هنا لا يمكن لي حقا أن استوعب جميع الجوانب لهذا الموضوع في هذه الرسالة الوجيزة التي لا تتجاوز مائة صفحة وأيا كان الأمر فأنني قد حاولت في هذه الرسالة بقدر استطاعتي أن يكون هذا العمل مستوفيا جميع شروط البحث و التحقيق و ختاما أود تقديم خالص الشكر و الامتنان إلى أستاذي البروفيسور محمد أسلم الإصلاحي الذي أولا دلني على هذا الموضوع الهام ثم أرشدني إلى المواد العلمية والأدبية المفيدة في هذا الموضوع و بعد ذلك ساعدني في إعداد هذا البحث وبتقديم توجيهات غالية و آراء صائبة وذلك للوصول إلى نتائج إيجابية و شجعني من حين لآخر على إكمال هذه الرسالة و أمدني في إزالة العقبات والعراقيل فلا أملك له إلا القول بأن يجزيه الله خير الجزاء وأن يمتعه بدوام الصحة و السلامة و يتيح لنا فرصة طويلة للإستفادة من علمه و فضله وخبراته نصائحه المخلصة.

و كذلك أشكر لجميع أصدقائى الذين شدوا أزري في إكمال هذه الرسالة و أخص منهم الأخ مسعود أظهر [illegible] والأخ سعد بن ضياء والأخ معراج أحمد والموظفين العاملين في مكتبة العلامة شبلي نعماني في دار العلوم التابعة لندوة العلماء بلكناؤ وفي مكتبة جامعة دلهي الذين ساعدوني بآرائهم الغالية و اقتراحاتهم الثمينة فأدعو الله لجميعهم الخير والبركة و اليمن والسعادة.

والله ولي التوفيق.

محمد ابرار الحق

230 ماهي هوستل

جامعة جواهر لال نهرو

نيو دلهي

الباب الأول

الشعر في بلاد الأندلس

العرب في بلاد الأندلس

قبل أن نكتب شيئا يبدو من الملائم أن نلقي نظرة على بلاد الأندلس وحدودها الجغرافية و على تاريخ مدنها و أمصارها وعلى سير ملوكها وكبار شعرائها مع ذكر حضارتها و ثقافتها وعناصرها البارزة.

تسمية الأندلس

الأندلس إقليم في جنوب إسبانيا ولكن العرب أطلقوا هذا الإسم على جميع البلدان الإسبانية التي تم فتحها على أيديهم و لهذه البلاد حضارة عريقة تستمل على أربعة أعصر:

1) عصر الفينيقيين الذين اكتشفوها
2) عصر الرومانيين
3) عصر القوطيين
4) عصر الإسلام

وكانت إسبانيا قبل أن يكتشفها الفينيقييون ما بين القرن الرابع عشر و الخامس عشر قبل الميلاد معمورة بقبائل كان اسمها "الإيبيريين" وقد وقع الخلاف عند المؤرخين في أصل هذه الكلمة فقال بعضهم أن هذا الإسم قد اشتق من كلمة "هباريا" التي كان الإسم الأول لهذه المنطقة ثم صارت هذه الكلمة بمرور الزمن إسبانيا .[1]

وذهب بعض الباحثين إلى أن منطقة إسبانيا الجنوبية كلها كانت تسمى في العهد الروماني منطقة بيتيك "Betique" فقد سميت "فنداليسيا"

---

(1) تاريخ الأدب العرب للعلامة مصطفى صادق الرافعي، ج /3 ص 267

"Vandalicia" عند مرور الفنداليين بهذه المنطقة أثناء هجرتهم إلى إفريقيا الشمالية ولكن هذا

الزعم لا تؤيده الوثائق. [2]

ومهما يكن من الأمر فإن كلمة الأندلس قد استعملها المؤرخون و الجغرافيون العرب فكانت تدل في بداية الأمر على إسبانيا كلها ثم أخذت تنطلق على المنطقة التي احتلها المسلمون من الأرض الإسبانية.

أما حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبي ينتهي إلى بحيرة الروم و إفريقيا الشمالية وفي الشمالي والمغربي يوجد البحر الأعظم و هو بحر أقيانوس المعروف ببحر الظلمات وفي حدها المشرقي تقع بحيرة الروم والجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين بحيرة الروم و البحر الأعظم ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل تشتمل على ثلاث مراحل وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس و حداها الأكبران الجنوبي والشمالي مسافة كل واحد منهما نحو ثلاثين مرحلة و الأندلس آخر المعمور في المغرب وهي منتهية إلى بحر أقيانوس.

وفي وسط الأندلس مدينة طليطلة العتيقة التي كانت قاعدة القوطا من قبائل الإفرنج ثم ملكها المسلمون بعد فتحها.

ومن المدن الأخرى للأندلس إشبيلية و مالقة و قرطبة وغرناطة والمرية و مرسية فهذه البلاد كلها أعدل هواء و أطيب أرضا و أعذب مياها ذلك لأنها تقع في الإقليم الخامس و أهلها أحسن ألوانا و أجمل صورا و أفصح لغة من الشعوب الأخرى.

---

(2) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركاب،ص 9

ولما استقر الأمر للمسلمين في الأندلس في غرة المائة الثانية للهجرة اختاروا مدينة قرطبة وجعلوها كرسي المملكة ومقر الإمارة.[3]

الأندلس قبل الفتح

وكانت إسبانيا في الوقت الذي أخذت تجذب فيه أنظار المسلمين إليها على أسوإ حالة في السياسة و الاجتماع فإن الضرائب الباهظة قد امتصت ثروة الطبقة الوسطى و استبد الموسرون على المعسرين بأراضيهم الخصبة فكانوا يستغلون جميع الموارد المالية و الزراعية لترفهم و ملذاتهم و النصرانية مع انتشارها في إسبانية لم تبدل كثيرا من الشرائع الرومية القديمة فظلت السيادة لأصحاب الإقطاعات و العبودية للفلاحين و الضعفاء فقد دخل قبيلة "القوط" هذه البلاد في القرن الخامس للميلاد وأقاموا فيها مطمئنين و أزالوا سلطان الروم وأقاموا سلطانهم و انتحلوا النصرانية دينا ولكنهم صاروا بها إلى اضطهاد اليهود وإلى احتقار الرومانيين لأنهم كانوا مغلوبين فكان من الطبعي أن تفضي هذه الحالة إلى الاختلال في بناء الدولة فبدأ أكثر الناس يمقتونها و يتمنون زوالها و اندثارها .

قبل نزوح المسلمين إلى الأندلس كان الملك لذريق يحكم هذه المنطقة وقد اغتصب الملك لذريق العرش القوطي بعد وفاة الملك غيطشة (Witiza) وكانت مدينة "سبتة" الواقعة في أقصى شمال المغرب تحت سيطرة عامل لقيصر الروم المسمى ب يليان (Julien) وكانت بينه وبين لذريق عداوة شديدة و هذه العداوة قد حملت "يليان" على السعى لإسقاط حكومة لذريق وثل عرشه ومن هنا ليس من المستغرب لو ساعد "يليان" العرب و مهد أمامهم سبيل الفتح.

---

(3) نقلا عن المعجب في تلخيص أخبار المغرب للأستاذ عبد الواحد المراكشي،ص 28

وكانت "سبتة" همزة الوصل بين المغرب العربي و الأندلس فكتب يليان إلى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يزين له فتح الأندلس ويصف خصوبة أراضيها ووفرة أموالها وسهولة التغلب عليها لتخاذل أهلها و تكالب بعضهم على بعض ووعده بالمساعدة فاستأذن موسى بن نصير الخليفة بغزو الأندلس فأذن له على أن يخوضها أول الأمر بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال فبعث موسى مولى له من البرابرة يقال له طريف بن ملك النخعي مع أربعمائة راجل ومائة فارس فحملتهم أربع سفن ليليان إلى جزيرة الفندال التى اشتق منها إسم الأندلس فسميت جزيرة طريف لنزوله بها وأقاموا فيها أياما ثم كروا إلى المغرب وقد أصابوا أموالا جسيمة و سبايا كثيرة .

وعاد يليان يحرض موسى على اقتحام الأندلس حتى أغراه عدة مرات فدعا موسى ببربري من مواليه إسمه طارق بن زياد و بعثه مع سبعة آلاف من البربر ليس فيهم إلا ثلاث مائة من العرب فأقلتهم سفن يليان التجارية لخمس خلون من رجب سنة 92هـ 711م فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من "سبتة" إلى جزيرة الفندال و يسميها العرب الجزيرة الخضراء وكان نزولهم عند جبل كلية (Calpe) فقيل له جبل الفتح أو جبل طارق وسمى بحر الزقاق مضيق جبل طارق .

وكان أول من قاوم الغزاة "تدمير" (Theudimer) صاحب الجزيرة الخضراء ولكنه لم يعبر طويلا بل انهزم إلى إشبيلية (Seville) وبعث إلى عاهله لذريق يخبره بغارة العرب والبربر و خيانة يليان فحشد لذريق الجيوش وكتب إلى أولاد غيطشة يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العدو و يحذرهم من القعود عنه فلم يجدوا بدا إجابته و مضوا معهم و هم مرصدون لمكروهه

لأنه كان قد اغتصب الملك من أبيهم وفي وادي بكة (Bekka) التقى الفريقان وكان جيش طارق بخمسة آلاف بربري جاءوه من المغرب فبلغ اثني عشر ألفا متحدة على الغزو واقتسام الغنائم وكان جيش لذريق على رواية ابن خلدون أربعين ألفا وعلى رواية المقرى مائة ألف ويقول "كليمان هيوار" "إن جيش الإسبانيين كاد يكون خلوامن الفرسان وإن أغلب سلاحه العصي و المقاليع" زد على ذلك حالته المعنوية المتدهورة.

واستمرت المعارك بين المسلمين و الإسبانيين مدة ثمانية أيام فرجحت كفة طارق وشالت كفة لذريق فانهزم شرا وحاول أن يعبر النهر بعدته وجواده فلم يبن له أثر وتم النصر للمسلمين في رمضان سنة 92 ﻫ وكانت خسارتهم نحو ثلاثة آلاف رجل وأما الإسبانيون فكانت خسارتهم أضعاف ذلك.

على أن أولاد غيطشة و يليان صاحب سبتة لم يظاهروا العرب في غارتهم على الأندلس إلا لاعتقادهم أنهم قوم غزاة لا يلبثون بعد الغنيمة أن يعودوا إلى بلادهم فشدوا أزرهم للتخلص من لذريق والعرب أنفسهم لم يكونوا مصممين على البقاء في إسبانيا عندما اقتحموها يدل على ذلك حديث رواه المقري لميمون العابد وكان في عداد الشاميين الذين دخلوا الأندلس فقد قال لأحد أولاد غيطشة :

"إنا قدمنا إلى هذا البلد غزاة نحسب أن مقامنا فيه لا يطول فلم نستعد للمقام ولأكثرنا من العدة".[4]

---

(4) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي ، ص 12

وبلغ موسى بن نصير فتح الأندلس فحسد طارقا وطلب إليه أن يتوقف عن الإيغال في البلاد حتى يأتي إليه ولكن طارقا لم يطعه بل تابع الفتح وأراد موسى بن نصير أن يناله نصيب من المجد فحشد جيشا يزيد على عشرة آلاف من البربر والعرب وعبّر بهم بحر الزقاق ودخل الأندلس في شهر رمضان سنة 93 ه ولكن عوضا عن أن يلحق بطارق أخذ يعمل لحسابه الخاص فسار به أصحاب يليان فافتتح إشبيلية وماردة (Merida) في غربي إسبانيا و استعمل دار السكة و ضرب بإسمه نقودا ذهبية وقد كانت جيوش طارق قد افتتحت أكثر الأندلس عندما ذهب موسى إلى طليطلة فاستقبله فيها طارق ونزل إليه إعظاما إلا أن موسى قد وبخه على عصيانه ثم أظهر الرضا عنه و تابع و إياه الفتح متوغلين في بلاد الفرنجة و بينهما يسيران من بلد إلى بلد إذ أمرالوليد بن عبد الملك يدعوه موسى إليه وقد بلغه ما أصاب من الأموال والغنائم فولى موسى إبنه عبد العزيز على الأندلس.[5]

ويقول عمر فروخ"ولا نعلم السبب الذي من أجله أرسل الوليد بن عبد الملك 86ه إلى موسى بن نصير يدعوه إلى الرجوع إلى دمشق استخلف موسى بن نصيرابنه عبد العزيز على الأندلس و أسكنه في إشبيلية و أمره بمتابعة الجهاد لتوطيد الفتح ثم قفل في أواخر سنة 95ه ومعه طارق بن زياد والغنائم و جاز موسى إلى إفريقية وعين ابنه مروان على طنجة وابنه عبد الله على القيروان ثم تابع سيره إلى المشرق في أول سنة 96ه فلما وصل إلى طبرية من أرض فلسطين وافاه رسول من سليمان بن عبد الملك يطلب إليه أن يتريث في المسير حتى يكون قدومه على دمشق و سليمان خليفة لأن الوليد كان مريضا مرض الموت غير أن موسى أغذ في السير وفاء للوليد الذي كان قد وجه الفتوح إلى الأندلس فوصل إلى دمشق والوليد حي في الأغلب وجاء سليمان بن

---

(5) ملخصا من كتاب "أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث"، ص 6-14

عبد الملك إلى الخلافة 96-99هـ فأتبع سياسة يمنية خلافا على أخيه و أبيه من قبل في اتباعهما سياسة قيسية فأساء إلى القيسيين و نكب القواد الذين فتحوا الفتوح في المشرق ثم ألقى موسى بن نصير في السجن و أرسل محمد بن يزيد واليا على المغرب و أمره بأن يأخذ آل موسى بالتعذيب و القتل و أن يغرمهم ثلاث مائة ألف دينار وقد كان سجن موسى بن نصير و مقتل ولديه عبد الله و عبد العزيز من الوصمات التي لصقت سليمان بن عبد الملك أبد الدهر و توفي موسي بن نصير في الحجاز بائسا فقيرا ذليلا سنة 98 هـ أما طارق بن زياد فقضى بقية عمره خاملا ثم توفي نحو سنة 102هـ/ 720م ". [6]

طبقات الناس في الأندلس

ويقول الدكتورعمر فروخ في هذا الصدد:

"لما استتب الفتح في الأندلس أصبح الناس طبقات من حيث العصبة والدين"

1-المسلمون:

(أ) ***العرب:*** الذين جاءوا إلى الأندلس من المشرق و نسلهم فاذا كانوا قد جاءوا مع طارق بن زياد أو موسى بن نصير في أول الفتح فهم "البلاديون" أما إذا كانوا قد جاءوا مع بلج بن بشر عياض القشيري على رأس جند أهل الشام في آخر عصر الولاة فهم "الشاميون"

(ب) ***البربر:*** أهل المغرب الذين انتقلو إلى الأندلس مع الفتح أو بعده.

---

(6) نقلا عن تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ ،ج /4 ،ص 38

(ت) ***المولدون أو الموالي:*** وهم الذين اعتنقوا الإسلام من نصارى الأندلس.

2-غير المسلمين:

(أ) ***المستعربون:*** نصارى الأندلس الذين تعلموا اللغة العربية فأصبحت لغتهم ينثرون فيها و ينظمون.

(ب) ***العجم:*** نصارى الأندلس الذي لم يتعلموا اللغة العربية وكانوا يتكلمون لغة محلية هي مزيج تغلب عليه لاتينية.

(ت) ***الروم ، الإفرنج و القوط:*** أسماء تدل على غير المسلمين من غير أهل الأندلس (الروم و البيزنطيون و الإفرنجة ا لبرابرة) وكانت هذه الألفاظ تطلق أيضا على النصارى عامة. [7]

ومن هنا من المناسب أن نوضح الفرق بين المغرب و المشرق ،المغرب هنا يقال في مقابل المشرق : إن مصر و السودان"في قارة إفريقية" ثم الحجاز والشام "في قارة آسية" وما وراء هذه شرقا هو المشرق أما ليبيا وما وراءها غربا "في قارة إفريقية" ثم جزيرة سقلية أو صقلية و شبه جزيرة إبارية الأندلس"من القارة الأوروبية" فهي المغرب.[8]

عهد الولاة (92-138هـ)

---

(7) تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ، ج /4 ،ص 39

(8) تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ، ج /4 ،ص 33

إن عهد الولاة في الأندلس يبدأ في الواقع بطارق بن زياد ثم بموسى بن نصير ثم بابنه عبد العزيز فلما قتل هذا بقيت الأندلس نحو ستة أشهر و بنو أمية لا يرسلون واليا إليها فاجتمع زعماء البربر و اختاروا أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت موسى بن نصير فحكم في قرطبة مدة قصيرة ثم تعاقب الولاة على الأندلس فمنهم من كان يعينهم الخليفة ومنهم من كان يعينهم عامل إفريقية و افتتحت بلاد جديدة كبرشلونة (Bercelone و قشتاله (Castille) و أغار العرب على شواطئ الروم فبلغوا ليون(Lyon) و تقدموا في قلب فرنسة حتى بلغوا تور(Tours) وكادوا يعبرون اللوار عندما هب علاقاتهم شارل مارتل بجموع الفرنجة في سهل بواتيه وردهم على أعقابهم و قتل في تلك الواقعة قائد العرب عبد الرحمن الغافقي والي الأندلس وذلك سنة 114هـ/ 732م.

ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين و النصارى في أوربا بل حدث شقاق عظيم في المسلمين أنفسهم فعهد الولاة كان عهدا مضطربا قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب و استحكم الشقاق و التنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق و انتقلت معهم العصبية القبلية و بدأ نزاعها ظاهرا بين القيسية و اليمانية.[9]

وعلى كل حال فظلت ولاية الأندلس ولاية تابعة للخلافة الأموية في دمشق يرسل الخلفاء الأمويون الوالي على الأندلس من قبلهم أو يرسل والي أفريقية واليا تابعا لهم إلى الأندلس و ظل الحال كذلك حتى سقطت الدولة الأموية و تتبع الخليفة العباسي السفاح بني أمية يقتلهم و ينكل بهم ففر حفيد لهشام بن عبد الملك

---

(9) أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث لبطرس البستاني،ص 16

مع مولاه بدر وهو عبد الرحمن الملقب بالداخل لدخوله الأندلس و بصقر قريش و انتهز فرصة الانشقاق بين القيسية واليمنية فتغلب على الولاة و بايعه الناس بالإمارة و جعل قرطبة سرير ملكه في العاشر من ذي الحجة سنة 139ه فقطع الخطبة عن بني العباس و دعي له على المنابر و بني المسجد الجامع في قرطبة و جعل بلاطه كبلاط لذريق في عظمته و بهائه و بدأت منذ ذاك العهد إمارة قرطبة المستقلة و تأسست الدولة الأموية و من خلال هذا أراد " شارلمان" مؤسس الإمبراطورية الفرنجية الكبيرة أن يتقرب إلى هارون الرشيد بالتنكيل بعبد الرحمن و بالفعل بعث بجنده غازيا الأندلس و لكنه لم ينجح فرد عبد الرحمن جنوده ونزلت بشارلمان هزيمة كبيرة في عودته و شاء الحظ أن تطول مدة عبد الرحمن الداخل فاستطاع يؤسس دولته على أسس متينة ثابتة الأركان كما فعل أبو جعفر المنصور في الدولة العباسية.[10]

هكذا تداول الملك بعد عبد الرحمن الداخل و أبناؤه من بينهم هشام الأول و الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني و في أثناء حكمه 206ه 238م قد نقل عبد الرحمن هذا مظاهر الترف والعادات الشرقية التي كانت في الدولة العباسية إلى بلاد الأندلس و تبعه بعد ذلك في تدعيم الترف أبناؤه خصوصا على يد زرياب وهو تلميذ إسحاق الموصلي و له تأثير كبير في الحياة الاجتماعية والأدبية و الفنية.

عندما تولى عبد الرحمن الثالث زمام الحكم كان قد بلغ من العمر ثلاثا و عشرين سنة و على الرغم من صغر سنه شاء له الحظ أن يحكم خمسين سنة

---

(10) ظهر الإسلام،الجزء الثالث لأحمد أمين،ص 5

من سنة 300هـ إلى 350هـ لما توسم فيه من المقدرة والصفات الحسنة ولم يعرف التاريخ الإسلامي عهدا زاهرا كعهده.

وكان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب بالخليفة في الأندلس بلغت الأندلس في زمنه أوج مجدها واحتلت مكانة سياسية ومدنية عظيمة في نظر المسيحية والعالم الإسلامي نفسه نهضت الآداب والعلوم نهضة مباركة وأصبحت قرطبة درة تتألق في جبهة الأندلس الوضيئة و كثرعدد سكانها حتى أصبح نحو نصف مليون وماست فيها القصور الباذخة والمساجد الفخمة و نعمت بكل مباهج الحضارة وازدهرت بمنشآت عظيمة ولا شك في أن الزهراء أعظمها وكانت هذه الحضارة العظيمة ثمرة يانعة لجهود أول خليفة أموي في الأندلس والذي استطاع إنقاذ الحضارة الإسلامية الزاهرة بما كان يهددها من الأخطار الخارجية والخلافات الداخلية.

ولما توفي عبد الرحمن الناصر كان له من العمر سبعون عاما وقد عرفت بلاد الأندلس في زمنه حياة الدعة والرخاء وحق لقرطبة أن تدعى مدينة العلم والأدب والفن.[11]

وبعد أن ضعفت الدولة الأموية في الأندلس جاءت الدولة العامرية فزلزلت البيت الأموي إذ بدأ رؤساء الطوائف يستقلون بالإمارات التي يحكمونها فعرفوا بملوك الطوائف ثم تفتت الدولة الأندلسية وتغلب عليها ملوك الطوائف فكل ملك ثار في اقليمه واستولى عليه فتعددت الملوك و تفرق أهل البلاد و أصبح في كل بلد أمير و منبر حتى أهل البيت الواحد انقسموا فيما بينهم ولم يمكنوا الحاكم من

---

(11) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي،ص 17-20

الاستمرار فبعضهم ينزل الأمير عن عرشه و يستولى هو و بعضهم يحالف ملوك إسبانيا ضد الأمراء من أهل بيته حتى انتهى كل هذا إلى خروجهم جميعا من الأندلس و سقوطها في يد الإسبانيين بعد حكم دام نحو ثمانية قرون وقد حاول أمراء المغرب من مرابطين و موحدين أن يعيدوا الأندلس إلى الوحدة و الترابط ولكن مع الأسف سرعان ما ضعفوا أيضا ولم يمكن الحكام من سعة الأفق في المدنية والحضارة بحيث يستطيعون أن يحكموا الأندلس طويلا فزلزلت الأرض من تحتهم فسقطو وزال ملكهم سريعا و خلفهم دويلات صغيرة كانت أعجز من أن تقاوم الإسبانيين و تقف أمامهم فانهزموا تباعا إلى أن رحلوا أخيرا من غرناطة و تركوا الديار تنعى من بناها. [12]

ومن الإنصاف أن نعترف بأن هولاء الملوك قد رعوا حركة الأدب و قربوا أصحابها وكانت أكثر عواصمهم أسواقا لها وكان منهم أدباء و شعراء كالمظفر وابنه المتوكل ملكى بطليوس والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية وكان أكثرهم يدعوا إلى بلاطه العلماء والشعراء الفلاسفة يحاضرهم و يجالسهم وفي عهدهم ظهرت الفلسفة و على رأسها ابن زيدون وابن باجة فليس في بحثنا موضع أن يطال الكلام و يلقي ضوءا على سائر الملوك فردا فردا و إننا نسوق الكلام بعض الخلفاء الأجلة لهم مساهمات كبيرة في تطوير العلوم و الفنون والأدب و غير ذلك وما إلى ذلك إننا نكتفي ببداية الفتح و عهد الولاة والدولة الأموية و أخيرا في ملوك الطوائف لأن ابن زيدون قد ولد في عهد الفتنة و الاضطراب ونشأ و أتم حياته في عهد ملوك الطوائف وبعد ملوك الطوائف

---

(12) نقلا عن ظهر الإسلام، الجزء الثالث، لأحمد أمين،ص 7

جاءت دولة المرابطين ثم دولة الموحدين وفي الأخير دولة بني الأحمر قد تركنا الكلام عن هذه الدويلات خائفا من إطالة البحث.

الحضارة الأندلسية

شهدت الحضارة الأندلسية تطورات مختلفة متبعة تطور تاريخ الأندلس السياسي فقد وصلت هذه الحضارة إلى ذروة الكمال في عهد الخلافة الأموية أيام حكم عبد الرحمن الناصر وولده الحكم ولكنها لم تصل إلى ذروة نضجها الفكري ولما انهارت الخلافة الأموية وسادت الفوضى أرجاء الأندلس في عهد الفتنة ذوت الحضارة الأندلسية وخبت مظاهرها العمرانية والفكرية حتى جاءت دول الطوائف فاستطاعت على رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية في قصورها و منشآتها و مجتمعاتها، وسطعت شمس الأدب والفكر.[13]

والأندلس بلاد جميلة ذات خضرة وماء و بساتين و أنهار و جبال و سهول و فاكهة و رياحين و أضافت الحضارة الجديدة الوافدة إليها من الرقى ما جعل سكانها يحافظون على روح الجمال الطبعي في بلدهم فأصبحت الأندلس أغنية عذبة في فم الشاعر ينشدها وهو بين ظهرانيها و أنشودة ساحرة على لسانه يرددها وهو مغترب عنها وإذا كان الشعر في الأندلس ظاهرة سياسية أساسية من ظواهر البيئة فيه فانه لذلك قد تدخل في كل شؤون الحياة.

إن الشعر الأندلسي يصف بلاده على لسان الشاعر الرقيق ابن خفاجة فيقول:

---

(13) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي، ص 55

إن للجنة بالأندلس مجتلى حسن و ريا نفس
وإذا ما هبت الريح صبا صحت وا شوقي إلى الأندلس

لقد كان لكل مدينة من هذه المدن لون من الجمال اختصت به ولكل منها عشاقها المتحمسون لها و يكفي قرطبة ما قاله ابن زيدون شوقا إليها وإلى صاحبته ولادة. [14]

وقد وجد العرب في الأندلس حضارة ممهدة و سبيلا مطروقة إلى الفنون الدقيقة والجمال الطبعي وجاءهم بعد ذلك من بني أمية أمراء الحضارة المشرقية و منافسوا العباسيين فيها وكان على رأسهم في ذلك عبد الرحمن الداخل الذي بدأ في بناء جامع قرطبة الأعظم و القصر الكبير الذي كان في الأبنية كأنه قصيدة في الشعر وإنما غرضنا هنا أن نضع أساس البحث في الحضارة الأدبية لأنها تابعة للحضارة الفنية تغتذي بمادتها و تشرق بجمالها و إنما الأدباء أقلام التاريخ التي تخلد حضارة الدول و تصف زينة الملك و تراسل عن الملوك بالثناء و حسن الذكر و طيب الأحدوثة.

Jawaharlal Nehru University Library
TH-13589

وأساس الحضارة الأدبية في الأندلس تلك الطبيعة التي كانت ترسل النسمات أنفاسا موسيقية تؤخذ شعرا و تلفظ ألحانا و بذلك حبب إلى أهلها الأدب و طبعوا على هذه الشيمة حتى كان ذلك ظاهرا في مثل "وادي الأشتات" من أعمال غرناطة وهي مدينة خص الله أهلها بالأدب و حب الشعر لما أحدق بها من مواضع الفرجة والبساتين الغناء وما زالوا يضربون المثل بأهل إشبيلية بلد المنتزهات في الخلاعة والمجون والتهالك على الشعر والغناء. [15]

---

(14) الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه للدكتور مصطفى الشكعة ،ص 24

(15) تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي (المجلد 3) ص 26

الشعر الأندلسي

تهيأت لأهل الأندلس أسباب الشعر وتوافرت لديهم دواعيه فطبعوا على الشغف به و انبسطت ألسنتهم بقوله حتى قل أن تجد منهم من ألم بطرف من الآداب ولم يقل شعرا وقد كان لطبيعة الأندلس الزاخرة بالمفاتن أثر كبير في طبعهم على هذه الشيمة حتى لم تخل مدينة من مدنها من شاعر حاذق.

ولم تقتصر الرغبة في الشعر على الرجال بل عدتهم إلى النساء فنبغ منهن شواعر يكون يضاهين الشعراء عددا وكان منهن طبقة من المحسنات البارعات كولادة بنت المستكفي و تلميذتها مهجة القرطبية وحمدة بنت زياد المؤدب المعروفة بخنساء المغرب و حفصة بنت الحاج الركونية و عائشة بنت أحمد القرطبية و نزهون القلاعية الغرناطية وكن جميعا موصوفات بالجمال والظرف.[16]

إن للشعر حظا كبيرا عند الملوك فنبغ منهم شعراء فكان الوزير نديم الملك وشاعره ومدبر مملكته في وقت واحد ، فاعتز الشعراء بذلك و سمت مكانتهم و حفلت بهم دور الأمراء و درّ عليهم الرزق فنعموا وترفوا إلا أنهم كانوا أبدا مهددين بزوال النعمة لوشاية حاسد أو مكيدة مبغض كما اتفق لابن زيدون عند بني جهور ولابن الخطيب عند بني الأحمر إلا أن هذا لم يكن شأن جميع الشعراء فقد عجز فريق منهم عن التقرب من السلطان أو الوصول إلى الوزارة فظلوا على نباهتهم مغمورين خاملين.

---

(16) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي،ص 63و نفح الطيب للمقري (المجلد 2) ص 1076

ولم تخل حياة الشعراء من مضايقات و أعنفها ما كان يلقاه بعضهم من لفيف من الفقهاء كما جرى لابن هانئ فقد نفاه أمير إشبيلية خوفا من الفقهاء و العامة لما بدا في شعره من آثار الخلاعة و المجاهرة مما يمس العقيدة.

كانت العربية لغة الأندلس الرسمية وكان الخلفاء و رجال الدولة يقربون من يحسن العربية و يتنافسون هم أنفسهم في دراستها و إجادتها وكان كل أمير يريد أن يصاحبه من الكتاب والشعراء ما يفوق ما لدى منافسه عددا ومكانة.

الشعر العربي والشعر الأندلسي

ويقول أحمد أمين في هذا الصدد:

"إن العالم الإسلامي كله من أندلس و مصر و شام وعراق كان أشبه ما يكون بجسم موصل جيد للكهرباء فما تملأ جزءا منه بشحنة كهربائية حتى تسرى في الجسم كله و يتأثربها، كان الشعر الجاهلي يمتازبصدق العاطفة وجزالة التعبير والاقتصار على مشاهدات ما عندهم من جمل وصحراء و جبال و أودية و غدران وكانت لهم تقاليد في الشعر من البدء بالغزل والبكاء على الأطلال ثم الانتقال منه إلى الغرض الذي يقصد إليه الشاعر من مديح ونحوه و استمر ذلك في العصر الإسلامي الأول فكان هذا الوضع أكبر مؤثر للعرب الفاتحين للأندلس إذ قالوا الشعر لأن هذا كل ما وصل إليهم ثم تطورالشعرآخر الدولة الأموية لغزل عمر بن أبي ربيعة و خمريات الوليد بن يزيد فانتقل ذلك أيضا فلما جاء العصرالعباسي تطورت الحياة الاجتماعية و تطور معها الشعرفهو بشار بن برد يعد مجددا و أهم معنى للتجديد أنه أقلم الشعر بالبيئة الاجتماعية وجاء أبو نواس فملأ الجو غزلا بالمذكر

و تحليلا دقيقا للخمر و تشبيهاتها ثم جاء أبو تمام فأفرط في البديع و جاء المتنبي فملأ شعره جزالة و قوة بدوية ثم جاء أبو العلاء فقال في معايب زمنه و أهله من ملوك و أمراء و قضاة ثم جاء ابن ججاج وابن سكرة فملأوا أشعارهم بالهزل و المجون و السخرية كل هذا انتقل إلى الأندلس بسرعة الشرارة الكهربائية".[17]

ويقول أحمد امين:

"إن الشعرالعربي جميعه كان أدبا رومانتيكيا أو كما يقولون شعرا غنائيا ونعني بالرومانيكية أنها تعنى بالخيالات الواسعة والعواطف الهائجة و الألفاظ الجميلة أكثر مما تعني بالأفكار الذهنية العميقة والمعاني الدقيقة والشعر العربي أيضا له تقاليد خاصة من التزام بحور لا تتجاوز ستة عشر و قافية تلتزم في كل القصيدة و موضوعات خاصة من مديح و نسيب و رثاء إلى غير ذلك مما يظهر من الأبواب التي وضعها أبو تمام و اختار شعر العرب على وفقها في كتابه الحماسة فانتقل كل ذلك إلى شعراء الأندلس وكان عمادهم في شعرهم ولكن الأندلس بلاد الإسبان من قديم و هم كانوا يقولون الشعر متأثرين باللاتينية و بالآداب اليونانية والرومانية ولها طريق آخر غير طريق العرب فلما امتزج العرب بالإسبان إذ كان الأولون يتزوجون من الآخرين و أنتج هذا الامتزاج مولدين فيهم أثر من الدم العربي وأثر من الدم الإسباني وخير مثال على ذلك الوالى عبد العزيز بن موسى بن نصير فقد تزوج أميرة من الأمراء الإسبانيين وأيضا لما امتزج

---

(17) ظهر الإسلام ،الجزء الثالث لأحمد أمين ، ص 103

العرب بالإسبان بالسكنى والمعاملة و الاشتراك في البيئة الطبعية والاجتماعية ظهر ذلك كله في الشعر كما ظهر عند في المولدين فكنت ترى شعرا أندلسيا شرقي النسيج ولكن فيه خيوطا دقيقة إسبانية و أيا ما كان الأمر فشعراء الأندلس في نظر أحمد أمين لم يفلحوا كثيرا في استقلالهم عن الشرق و ابتكارهم و تجديدهم كما نجح في ذلك اللغويون والنحويون و الصرفيون".[18]

والشعر الأندلسي فيه رقة وجمال وفيه خيال لطيف وصور براقة ملونة ولكن ليس فيه من المعاني الدقيقة ما في الشعر العباسي لأن أصحابه عنوا بتزيين ألفاظه و توشية أوصافه والتنوق في قوالبه أكثر من عنايتهم بتصيد معانيه والغوص عليها في قراراتها البعيدة فكأنهم أرادوا أن يتغنوا فنظموه صالحا للغناء وشيئ آخر جعل الشعر الأندلسي دون الشعر العباسي في دقة المعنى وهو أن الأندلسيين لم تتسع صدورهم لإقتبال الفلسفة والمنطق كما اتسعت صدور المشارقة فلم يتثقف بهما شعراؤهم تثقف شعراء بني العباس.

أغراض الشعر الأندلسي

عالج الشعراء الأندلسيون الأغراض المختلفة للأدب مثلا المدح والرثاء والهجاء الحكمة الزهد التصوف الوصف والغزل والخمروفيما يلي التفاصيل عن هذه الأصناف كلها:

المدح

---

(18) ظهر الإسلام ،الجزء الثالث لأحمد أمين، ص 104

اتبع شعراء الأندلس في مدائحهم الخطة التي جرت عليها المشارقة فحافظوا على الأسلوب القديم وعنوا بالاستهلال وحسن التخلص وإحكام البناء و شد أسره والتزموا الغزل في محاريب مدائحهم وربما جعلوا صدورها وصفا للخمرة أو للطبيعة أو للبلد الذي نشأوا و ترعرعوا فيه.

ومن الشعراء البارزين في المدح من شعراء بني أمية ابن عبد ربه و أحمد بن شهيد وابن هانئ ومن شعراء الدولة العامرية في قرطبة ابن دراج القسطلي و أبو عامر بن شهيد ومن شعراء ملوك الطوائف ابن زيدون وابن عمار و ابن اللبانة وابن حمديس وابن الحداد ومن نموذج هذا النوع من الشعرما قاله ابن دراج يمدح الحاجب المنصور بن أبي عامر معارضا رائية أبي نواس في الخصيب.

ألم تعلمي أن الثواء هو التوي أن بيوت العاجزين قبور
تخوفني طول السفار وإنه لتقبيل كف العامري سفير [19]

و كذلك قال بن عمار يمدح المعتضد بن عباد:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا [20]

الرثاء

---

(19) ظهر الإسلام لأحمد أمين ،الجزء الثالث، ص 132

(20) أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث لبطرس البسطاني،ص 47

وكذلك في الرثاء لم يختلف الأندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع على الميت ووصف المصيبة و تعداد المناقب فكانت معانيهم و أساليبهم متشابهة وكانوا يستهلون مراتبهم بالحكم كالمشارقة إلا أن حكمهم كانت ساذجة لا عمق فيها.

أنهم فاقوا المشارقة برثاء الممالك البائدة لما في نفوسهم من محبة صادقة لوطنهم وشغف عظيم بجمال طبيعته و عمرانه فكان يشجوهم أن يروا ديارهم تسقط بلدا إثر بلد في أيدي الغرباء من غزاة و مكتسحين فيبكون عليها و يتفجعون كما بكى ابن اللبانة على دولة العباديين وابن عبدون على دولة بني الأفطس عندما أزالها يوسف بن تاشفين وبكى أبو البقاء الرندي الأندلس بأسرها بعد أن استردها النصارى وقد بدت لوعة صادقة في هذه القصائد الثلاث ولاسيما في قصيدة أبي البقاء التي يقول فيها.

لكل شيئ إذ تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبق على أحد ولا يدوم على حال لها شأن [21]

إن الشكوى والاستعطاف يتصل بالرثاء وقد امتاز بهذا الغرض الملوك والأمراء لكثرة ما نالهم من المحن والنكبات فذلوا بعد عز و هبطوا بعد رفعة.

الهجاء

أما الهجاء فلم تقم له سوق رائجة في الأندلس ولاسيما الهجاء السياسي بقلة الأحزاب السياسية وقد ظهر في عهد الأمراء هجاء بين المضرية واليمانية

---

(21) أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث لبطرس البستاني، ص 54

غير أن المؤرخين لم يحفظوا لنا شيئا منه يستحق الذكر وقد قام بعض الشعراء بهجو الفرنجة أثناء الحروب معهم و هجوا البرابرة عندما استفحل أمرهم وكانت الغاية من الهجاء التكسب والمجون ولكنه حافل بالفحش والإقذاع ومن أشهر الهجائيين أبو بكر المخزومي الأعمى شاعر غرناطة و بينه وبين نزهون بنت القلاعي معاشقات فاحشة و كذلك ولادة بنت المستكفي ولهاهجاء فاضح في صاحبها إبن زيدون ومن نموذج الهجاء قول المخزومي الآتي:

على وجه نزهون من الحسن مسحة وتحت الثياب العار لوكان باديا
قواصد نزهون ثرارك غيرها ومن قصد البحر استقل الاسواقيا

فأجابت نزهون قائلة:

إن كان ما قلت حقا من بعد عهد كريم
فصار ذكرى ذميما يعزي إلى كل لوم
وصرت أقبح شيء في صورة المخزومي [22]

الحكمة

إن الحكمة في الشعر الأندلسي ضعيفة النتاج ساذجة التفكير بدهية التصور بعدم انتشار الفلسفة والمنطق في تلك الربوع إبان دخول العرب إليها بل تأخر ظهور الفلسفة إلى أواخر القرن الخامس و سبب ذلك ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الأندلس فإنهم ضيقوا حرية التفكير و كفروا كل متفلسف و أفتوا بنفيه و إحراق كتبه وكانت العامة تجري أهواء الفقهاء فيضطر السلطان تجاه ثورانهم إلى استرضائهم بإتلاف كتب الفلاسفة كما فعل الحاجب المنصور

---

(22) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي،ص 117

وبمعاقبة المتهمين كما فعل صاحب إشبيلية بابن هانئ إذ أمر بإبعاده عن المدينة لأنه كان يؤيد مذاهب الفلاسفة.

إن ابن هانئ كان أكثر الشعراء الأندلسيين احتفالا بالحكمة و ضرب المثل محاولا بذلك تقليد المتنبي ولكنه بقي مقصرا عنه أشواطا و حكمته تدور حول شكوى الدهر والتحذير من الدنيا الغرور.

فمن قوله:

وهب الدهر نفيسا فاسترد ربما جاء بخيل فحسد
كلما أعطى فوفي حاجة بيد شيئا تلقاه بيد
خاب من يرجو زمانا دائما تعرف البأساء منه والنكد [23]

الزهد

وإذا كانت الحكمة ضئيلة في الشعر الأندلسي فلم يكن الزهد كذلك وقد كان لسلطة الفقهاء تأثير في دفع الناس إلى التعصب الديني والتظاهر بالعبادة والنفور من الدنيا و مباهجها حتى كثر المتزهدون وأصبحت صناعة الزهد مطلوبة وزيا مرغوبا فيه فكان الشعراء ينظمونه بدافع ديني أحيانا وبدافع تقليدي أحيانا أخر على أن من الشعراء من نظمه وقد شعر حقا بندمه وأدرك غرور الدنيا فأخذ يذكر ذنوبه طالبا مرضاة الله وعفوه وهذه اختلاجات نفسية تحدث لصاحب الكبائر حينا بعد حين.

---

(23) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي،ص 116

ولاريب في أن كثرة الحروب و توالى الفتن والمحن أثرت في نفوس الشعراء الحساسة فمالوا إلى الطعن بغدر الأيام و غرور الزمن و قادهم هذا الموقف إلى لون من الشعر الشاكي الذي انتهى بهم إلى الزهد و ذكر الله.

فيقول ابن عبد ربه وهو يصف الدنيا بأنها دار للفجائع والمصائب.

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ولا اللذات إلا مصائب
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة على ذاهب منها فانك ذاهب [24]

التصوف

التصوف هو الغاية التي ينتهي إليها التزهد في الإسلام و انتشار الزهد في الأندلس أفضى إلى التصوف وكان هناك اتصال بين متصوفة المشارفة و متصوفة المغاربة من جراء تبادل الرحلات و التنقل بين الغرب والشرق فأخذواعنهم طرائقهم وآراءهم و نظموا الشعرالصوفي مثلهم وألمع شعرائهم ابن العربي شيخ المتصوفين وله قصائد و موشحات صوفية وفيها يقول:

سرائر الأعيان لاحت على الأكوان للناظرين
والعاشق الغيران من ذاك في حران يبدي الأنين [25]

الوصف

---

(24) أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث لبطرس البستاني،ص 63

(25) أدباء العرب في الأندس و عصر الانبعاث للبطرس البساتي،ص 65

تفنن الأندلسيون في شتى الأوصاف حتى فاقوا المشارقة في بعضا كوصف الطبيعة الناعمة والمدن العامرة فكل شاعر منهم متصل بالطبيعة وبرعوا في وصف مجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته والصيد وأدواته والنساء وأحوالهن وطيف الخيال و هناك شعر وصفي للحروب والسلاح والسفن و غير ذلك مما يتناول الحياة برخائها و حربها بطبيعتها الجميلة التي من بها الله.

ولا عجب أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر في الشعر الأندلسي فإن الحروب بين المسلمين وأعدائهم الفرنجة لم تنقطع ولم تصدأ حرب إلا لتشن أخرى لهذا حفلت مدائح الملوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش والخرافات حتى ان ابن عبد ربه نظم أرجوزة في نحو خمسين بيتا وأربع مائة وصف فيها مغازي عبد الرحمن الناصر وفتوحه من سنة 301 إلى 322هـ ونقدم فيما يلي :

فأشرعت بينهم الرماح وقد علا التكبير و الصياح
وفارقت أغمادها السيوف وفغرت أفواهها الحتوف
والتقت الرجال بالرجال وانغمسوا في غمرة القتال [26]

الغزل

وإذا كانت الطبيعة لها المكان الأول بين أغراض الشعر الأندلسي فالغزل كان ياتي على الثانية على شفاه الشعراء و يدعو إليه كل ما في الأندلس من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء و خمر وغناء و أسواق للنخاسة التي يباع فيها الجواري والغلمان بأثمان بخسة لكثرتهم قد شجعت هذه الحياة اللاهية على الغزل والغزل وجد فيها مرتعا خصبا فكان من

---

(26) أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث للبطرس البستاني ،ص 68

ذلك أن أمعن أهل الأندلس في حياة النعمة والترف و أخلدوا إلى الحب والغزل وكان للشعراء حظ وافر من هذه الحياة الرخية فتغزلوا وأفرطوا في التشبيب إلا أن أكثر غزلهم بين التقليد والتكلف لتمكن الحضارة الجديدة من نفوسهم وانفصالهم من أهل البادية فخرجوا على الأسلوب القديم كذكر البادية والأهوال في سبيل الوصول إلى الحبيب وانصرفوا إلى وصف حياتهم وما فيها من عبث و لهو ومجون فتهتكوا في غزلهم وأسرفوا في التهتك وقد بلغ الغزل في زمن طوائف الملوك إلى حالة مزرية في انحطاط ألفاظه ومعانيه.

واعتمد الأندلسيون على الأوصاف المادية في ذكر أحبتهم فوصفوا الشعر والعين والخد و الثغر و حلوها بالتشابيه المألوفة ولم يجدوا المعاني فالمحب ذليل والمعشوقة لا ترحم ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بالحب المعذب الذي تفنن الشعراء في وصفه فرحين بالتذلل للحبيب والخضوع له وقلما تحدث الشاعر عن أفراح الغرام فهو إذا في ألم دائم ولعل أجمل ما في الغزل الأندلسي هو هذه النغمة المحزنة التي يبكي فيها الشاعر أيام سعادته بالقرب من الحبيب و يحن إلى أيامه الآفلة التي قضي الدهر أن تكون ذكرى لحب مقيم و هذه النغمة هي التي منحت قصيدة ابن زيدون في صاحبته ولادة هذا الصيت حتى تناقلته كتب الأدب ومطلع تلك القصيدة:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

هذا وقد ظهرت آثار البيئة على أشعار الأندلسيين الغزلية فعمّ عندهم الغزل النصراني وذكر الكنائس والصلبان كغزل ابن الحداد في نويرة النصرانية كما عمّ عندهم التشبيب بالشعر الأشقر والعيون الزرقاء لكثرة ما كانوا يصيبون من سبى فرنجة الشمال وكانت تشبيهاتهم مستمدة غالبا من

الطبيعة ولكن كثيرا ما كان يظهر عليها التكلف والصنعة وخير أشعارهم الغزلية ما كانت مجردة عن هذا التكلف كما نشاهده في قصيدة ابن زيدون .[27]

أبرز شعراء الأندلس

وقد برز في بلاد الأندلس شعراء مثالية وقد سابقوا الفحول من شعراء المشرق في بعض الأغراض وإن كانوا قد قصروا في أغراض أخرى ويبدو من الملائم هنا أن نلقي الضوء على بعض هؤلاء الشعراء لإبراز مساهمتهم في الشعر العربي .

ابن هانئ 326هـ-363هـ

ومن الأسماء المنفردة في سماء الشعر الأندلسي "ابن هانئ" ولد هذا الشاعر النابغة بإشبيلية و ترعرع فيها و حظى عند صاحبها وكانت الأندلس إذ ذاك في عصرها الذهبي زمن عبد الرحمن الناصر و ابنه الحكم واشتهر ابن هانئ بالآراء الفلسفية وباللهو والمجون وفي شعره نزعة إسماعيلية بارزة فأساؤوا القول فيه بسببها و لذلك أشار عليه بعض أصدقائه بالمغيب عن البلدة مدة ينسى فيها خبره فرحل إلى إفريقية والجزائر ثم اتصل بالمعز العبيدي وأقام عنده في "المنصورية" بقرب القيروان مدة قصيرة ورحل المعز إلى مصر بعد أن فتحها قائده جوهر فشيعه ابن هانئ وعاد إلى إشبيلية فأخذ عياله وقصد لاحقا بالمعز فلما وصل إلى "برقة" قتل فيها غيلة.

---

(27) نقلا عن كتاب "في الأدب الأندلسي" للدكتور جودت الركابي،ص 121-122

يدل شعر ابن هانئ على أنه كان ملما بعدد من العلوم كعلم اللغة والفقه والكلام وعلم الهيئة ولكن اختصاصه كان في الأدب وهو شاعر مكثرمجيد جعله معظم النقاد في مقدمة شعراء المغرب كلهم والمغاربة يقارنونه بالمتنبي و لذلك قد سموه "متنبي الغرب"

وهو صاحب القصيدة المشهورة التي يقول فيها:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضي الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر تطالعه البشرى ويقدمه النصر

وله قصيدة يمدح بها المعز فيقول فيها:

أما والجوارى المنشآتالتي سرت لقد ظاهرتها عدة وعديد
قِباب كما تزجي القباب على المها ولكن من ضمت عليه أسود
ولله مما لا يرون كتائب مسومة تحدوبها و جنود
تعانق مدج البحر حتى كأنه سليط لها فيه الذبال عتيد

فليس لها إلا الرياح أعنة وليس لها إلا الحباب كديد [28]

ونلاحظ في هذا الوصف الفخامة في الألفاظ إلى جانب الصورالبصرية ولقد قادت هذه الفخامة وهذا الحب للمبالغة في المدح والوصف وحدة الحكم المتفوقة في شعره المغاربة إلى تشبيهه بالمتنبي.

أحمد بن دراج القسطلي

---

(28) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي،ص 90

وهو يونس بن محمد القسطلي شاعر فحل من الدولة العامرية في قرطبة وكان كاتبا للمنصور بن أبي عامر وهو من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين وشعره أعلى طبقة من نثره.

وأسلوب ابن دراج مطبوع على غرار الشعر المشرقي وعلى غرار الشعراء الذين يتكلفون الغرض على المعاني و يتأنقون في الصياغة كأبي تمام والمتنبي ولذلك سمي"متنبي الغرب" غير أن شعره رغم ذلك كله يمتلك قدرا كبيرا من العذوبة والسلاسة مع شيئ من الغموض أحيانا.

ومن نموذج شعره الأبيات التالية التي يصف فيها وداعه لزوجه و يذكر ابنه الصغير الذي خلفه وراءه:

ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبري منها أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبغوم النداء صغير [29]

وقال يمدح يحي المظفر بن المنذر التجيبي 414هـ-420هـ صاحب سرقسطة:

نجوم الصبا أين تلك النجوم؟ نسيم الصبا أين ذاك النسيم؟
أما في التخيل منها ضياء أما في التنشق منها شميم [30]

ابن خفاجة

---

(29) في الأدب اللأندلسي للدكتور جودت الركابي،ص 91

(30) تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ، ص 382

هو ابراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله بن خفاجة ولد في بلدة شقر سنة 450ه وهو أسمى و أكبر شعراء دور ملوك الطوائف تتمثل فيه الجدة والحداثة وهو شاعر غزل غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة وقد سمي بشاعر شرقي الأندلس كما سمي بالشاعر البستاني ولقبه المقري بصنوبري الأندلس لعنايته بوصف الطبيعة لقد وصف ابن خفاجة الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها فوصف الطبيعة الساكتة ورياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها و جبالها و مفاوزها وسماءها و نجومها وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار.

ومن نموذج أبياته:

و كمامة حدر الصباح قناعها عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
نشرت بحجر الأرض فيه يد الصبا دُرر الندى ودراهم النوار [31]

وقوله في وصف نهر:

لله نهر سال في بطحاء أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه مجرّ سماء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء [32]

ويقول في وصف رياض الأندلس و مباهج جنانها :

---

(31) تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ، ص 382

(32) في الأندلسي للدكتور جودت الركابي،ص 107

يا أهل أندلس لله دركم ماء و ظل و أنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة نار [33]

هذه أسماء لامعة للشعراء في الأندلس وقد جئت بذكرهم الوجيز لكي أبرز جانبا هاما لميزات الشعر الأندلسي وما عدا هؤلاء الشعراء الذين أسلفت ذكرهم ثمة شعراء عديدون لا يقلون شانا و منزلة ولكن شطبت أسماؤهم لضيق المجال.

---

(33) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي،ص 112

الباب الثاني

ابن زيدون
حياته وخدماته في مجال الشعروالنثر

ابن زيدون حياته وخدماته في مجال الشعروالنثر

لقد أنجبت الأندلس شعراء أفذاذا ولهم خدمات جليلة في مجال الشعر وأنهم نافسوا شعراء المشرق فقاربوهم أحيانا وكادوا يبزونهم بعض الأحايين في الشعر والأدب إلا أن معظم آثارهم إما نسيها الزمان و طمستها الأحداث السياسية وما بقى منها اعتورته عوامل الاختلاق والتحريف فغيرت معالمه و شوهت محاسنه.

وأيا كان الأمر فإننا لما قمنا باستعراض الإنتاج الشعري لشعراء الأندلس وجدنا ابن زيدون زعيمهم بلا مراء ، وهو يعد في الرعيل الأول من شعراء العربية في جميع المواطن و الأزمان ولكن آثاره الشعرية والنثرية و ردت إلينا ناقصة مليئة بالتحريف والانتحال ومع ذلك فإنها يتمع بصيت ذائع و مكان مرموق.

وقبل أن نتحدث عن حياة ابن زيدون نود أن نلقي نظرة على عصره وذلك لأننا لا نستطيع أن ندرس آثار فنان دون التعرف على أحداث حياته التي ألهمته ما أبدعه من آيات وكذلك لا نستطيع أن نلم بحياة عبقري دون الوقوف على العصر الذي أنبته والبيئة التي نجلته فالإنسان من صنع بيئته و إن حلق في أجواء الفضاء.[1]

عصر ابن زيدون

قضى ابن زيدون حياته في عصر ملوك الطوائف وهو عصر انحدرت فيه الدولة الإسلامية بعد صعود و ضعفت بعد قوة و هو القرن الخامس للهجرة

---

(1) ديوان ابن زيدون و رسائله لعلي عبد العظيم ،ص 10

الموافق القرن الحادي عشر الميلادي ففي هذا الزمن وقعت الأندلس فريسة للعصبية العنصرية بين القبائل العربية ثم للعصبية الجنسية بين العرب و البربر والصقالبة ثم للمذاهب السياسة ما بين العباسية و العلوية و الأموية ثم للحزازات الدينية ما بين اليهودية و المسيحية والإسلام التي أنهكت قوى الحكومة وادارات السلطة الرسمية.

وعلى النحو انقسمت الأندلس إلى أندلسات كثيرة و دويلات صغيرة و أقاليم عديدة يحكمها أمراء عديدون يعتدي بعضهم علي بعض و يستعين كل منهم بحماية الأعداء المتربصين ولسنا الآن بسبيل تأريخ هذا العصر أوالحديث عن أمرائه المتناحرين و إنما يعنينا في هذا المقام التحدث عن الإمارتين هما إمارة قرطبة و إشبيلية فقد قضى الشاعر في الأول الشطراللأول لحياته و قضى في الثانية الشطر الأخير .

بنو جهور بقرطبة

سقطت الخلافة الأموية بالأندلس نتيجة لما اعتورها من ضعف و انحلال وقامت على أنقاضها عدة دويلات ، فاجتمع أهل قرطبة سنة 422 ه و أعلنوا الحكم الجمهوري و نادوا بأبي الحزم بن جهور حاكما لهذا الإقليم و أعلن أن الحكم يكون بالتشاور و ضبط الأموربعد ذلك بحزمه كما قام بإصلاحات عديدة ولما نادى الناس بالخليفة هشام الثاني المزعوم و استعدوا لتأييده بقوة السلاح بادر ابن جهور بالاعتراف به ولكنه ظل يكشف للناس زيفه حتى تهيأت الأذهان للانصراف عنه و أعلن سقوط بيعته. [2]

---

(2) ديوان ابن زيدون و رسائله لعلي عبد العظيم ،ص 12

لا مرية في أن ابن زيدون كان من عظام الرجال الذين لم يكونوا في معزل عن حوادث الفتنة و أشد قربا عند أبي الحزم بن جهور بين كافة وزرائه ويقول المؤرخون إن أبا الحزم بن جهور سرعان ما غير رأيه عن ابن زيدون فألقاه في السجن ولكن عبدالله بن أحمد المكوي أحد حكام قرطبة شفع له و انتشله من نكبته و صيره من صنائعه.[3]

ويكتب المؤرخون أيضا أن سجن الشاعر كان نتيجة لما حاكه حساده من مؤامرات وكان في طليعة هؤلاء الحساد منافسه ابن عبدوس فاستطاع أن يوغر صدر الأمير ابن الجهور عليه وقد يكون هولاء الحساد قد أثاروا أيضا ضده قضية حبه لولادة.

هكذا قضى الشاعر ما ينوف عن خمس مائة يوم سجينا حائرا و تذرع بولي العهد حتى عفا عنه الأمير و توفي أبو الحزم سنة 435هـ.[4]

بعد وفاته تقلد زمام الأمور ابنه الوليد و هنا نرى نجم ابن زيدون يتألق و يعلو فيقربه الوليد منه و ولاه وزارته و ناط به السفارة بينه و بين ملوك الطوائف فطالت إقامته لديهم حتى ضاق الأمير بهذا التصرف و أصغى إلي دسائس خصوم الشاعر و منافسيه و عزله من منصبه ثم رضي عنه بعد عدة أعوام و لكن الدسائس عادت ثانية فهجر الشاعر أميره و انتقل إلى بني عباد إشبيلية وقد ظل ابن الجهور يحكم قرطبة حتى تقدمت به السن و أساء إبنه

---

(3) في الأدب الأندلسي للدكتور جودة الركابي، ص 175

(4) المرجع السابق، ص 175

التصرف فوقعت قرطبة في أيدي بني عباد سنة 462ه فضمه إلى إشبيلية وكانت للشاعر مشاركة في هذا التدبير.[5]

بنوعباد بإشبيلية

استقل أبو القاسم بن عباد بحكم إشبيلية سنة 414ه فاستطاع أن يوطد دعائم الحكم بحزمه و مكره و يستحكم أركانه في هذا الإقليم فنهض إلى تقوية جيشه و امتدت مطامعه فوقع على شخص يشبه هشاما الأموي فنادى به خليفة ودعا ولاة الأقاليم للدخول في طاعته فاستجاب له بعضهم و تأبى عليه الآخرون واستطاع من وراء هذه الدعوة أن يضم إليه بعض البلاد و توفي ابو القاسم بن عباد سنة 433ه فخلفه ابنه المعتضد بن عباد وكان المعتضد عالي الهمة صارم العزمات فشن حروبا متوالية على البلاد المجاورة فوسع رقعته الإقليمية إلى أضعاف ما كانت عليه و كان مع قسوته شاعرا بارعا يصوغ الشعر و يجزل عليه الصلات فاجتمع في بلاطه عدد كبير من الشعراء ومنهم ابن زيدون زعيمهم الذي كان يرعاه المعتضد وكان يحتفي به احتفالا حارا و قد ولاه الوزارة و لقبه بذي الوزارتين و أسبغ عليه الخلعة و قلده أمور دولته و قد بقي ابن زيدون وزيرا للمتعضد و شاعره المفضل إلى أن توفته سنة 462 ه فلما تولى الملك ابنه المتعمد حظي إبن زيدون زيدون بالمكانة نفسها التي كان يتمتع بها عند أبيه وكان المعتمد من أرق شعراء الأندلس شعرا ومن أبرعهم صياغة فجمع حوله طائفة كبيرة من الشعراء.

وفي عهد المعتمد اشتد العداء بين الأمراء المسحيين بالشمال و أمراء المسلمين بالجنوب و أوشك الإسلام أن يندثر بالجزيرة فاستغاث المعتمد بالعباد

---

(5) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي، ص 176

و الأمراء المسلمون الآخرون بيوسف بن تاشفين أمير الملثمين بالمغرب فأغاثهم ولكن التهمهم المسيحيون بعد أن رد يوسف كيدهم فمات المعتمد في أسره بعد أن قاسى ما قاسى من عذاب و تنكيل.[6]

الحضارة العربية بالأندلس

بينما كانت الفوضى السياسية منتشرة بالأندلس كانت الحضارة الإسلامية بها قد أينعت و ازدهرت و بلغت غاية النماء و أصبحت الأندلس مقصد طلاب العلم و مهبط رواد المعرفة من أنحاء أوربا المختلفة وانتشرت التقاليد العربية في كثير من البقاع الأوروبية وكان معظم الأمراء الغربيين إذ احتاجوا جراحا أو مهندسا أو مغنيا أو خياطا وجهوا طلبهم إلى قرطبة التي ضاع صيتها في أوروبا حتى وصفتها راهبة سكسونية بأنها جوهرة العالم .[7]

قرطبة

هي مدينة في إسبانيا على الوادي الكبير أسسها الفينيقيون ثم احتلها الرومان 152 ق.م واستولى عليها العرب فأصبحت عاصمة الدولة الأموية في الأندلس و افتن العرب في تشييدها و عمرانها و من أهم آثارها قصر الزهراء وقد أفاض المؤرخون في وصف قرطبة و ضواحيها و منتزهاتها و جسورها مما يبهر الخيال و سنرى في آثار ابن زيدون صدى هذا الجمال الفتان. [8]

إشبيلية

---

(6) نقلا عن ديوان ابن زيدون ورسائله ، لعلي عبد العظيم ،ص 13

(7) المنجد في اللغة والأعلام لفيروز آبادي ،ص 547

(8) ديوان ابن زيدون ورسائله للأستاذ علي عبد العظيم، ص 15

كانت حاضرة الأندلس قبل قرطبة و تقع على شاطئ الوادي الكبير و تقوم في أجمل بقاع الأندلس و أعدلها هواء في جبل الشرف الدائم الخضرة الممتدة مسافة أربعين ميلا في إثنى عشر ميلا تظللها أشجارالتين و الزيتون و فيها ثمانية آلاف قرية عامرة بالحمامات و الديار الحسنة و فيها يقول ابن المفلح:

"إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس لأن تاجها "الشرف" وفي عنقها سمط النهر الأعظم وليس في الأرض أتم حسنا من هذا النهر يضاهي دجلة والفرات والنيل تسير فيها القوارب للنزهة والصيد تحت ظلال الثمار و تغريد الأطيار".[9]

ومن آثارها البديعة الباقية من عهد بني عباد القصر ويسمونه الآن "الكازار" وهو من أروع التحف في جلاله و فخامته و نقوشه الذهبية الموشاة بالألوان الحمراء والزرقاء و الخضراء و سنرى آثارها الرائعة مشعة في شعر ابن زيدون حيث طوى في ظلالها شطر حياته الأخيرة.

الحركة الفكرية

تجدر الإشارة هنا إلى أن العلوم الدينية كانت تحظى بالمرتبة الاولى وكانت للفقهاء لدى الخلفاء درجة عالية و علوم اللغة و فنون الآداب كانت تاتي بالمرتبة الثانية وقد ازدهرت الأندلس في مجالات هذه العلوم و الفنون ازدهارا عظيما لأنها كانت تتمتع ببيئة صالحة و طبيعة موحية .

---

(9) ديوان ابن زيدون للدكتور علي عبد العظيم ، ص 15

عرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكريها و أدباؤها و شعراؤها أمثال الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة 456 ه صاحب كتاب "طوق الحمامة" وهو أول كتاب في فلسفة الحب و ثمة كتاب شهيرآخر في الأديان والموازنة بينها واسمه "الفصل في الملل و الأهواء و النحل" و المؤرخ الكبير ابن حيان المتوفى سنة 469 ه صاحب كتاب "كتاب المبين في ستين مجلدا" والشاعر ابن زيدون المتوفى 462ه واللغوي الشهيرابن سيدة المتوفى سنة 458 ه وله كتاب بعنوان "المخصص و المحكم" وكتب الأدب والتراجم التي ألفت في هذا العصرزاخرة بذكرهؤلاء العلماء الأفذاذ وعلى سبيل المثال قد ألف ابن بسام كتابا هاما في هذا الموضوع بعنوان " الذخيرة" وهو في أربعة أجزاء ضخمة وهناك كتب أخرى في التراجم مثل"تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي و"الصلة" لابن بشكول و "التكملة" لابن الآبار.

حياة ابن زيدون

اقترنت الوزارت في الأندلس بالأدب والشعر فكان بعض الوزراء كتابا و شعراء وكذلك كان بعض أشهر الكتاب و الشعراء وزراء وكان لمثل هذه الوزراء أثر عظيم في مجال الأدب وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزراء أنفسهم في الدولة و ظهرت في الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا على مناصب الحكم و تقلبوا في مراكز الدولة و تغلبوا على شؤونها وهم جميعا من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء و أعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء و الأدباء و الشعراء المجيدين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي أشهر من عرف في حلبة الأدباء و أظهرهم ميزة في فنون الكلام و أساليب الشعر

والبيان لأنه صورة من صور الأدب في الأندلس و ثمرة من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب .

ولادته

ولد ابن زيدون في سنة 394 هـ / 1003م بالرصافة من أرباض قرطبة وهي ضاحية متصلة بقرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل في بيت ميسور و جاه موفور.[10]

وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون أحدهم أبو بكر عبدالله بن احمد بن غالب والده والثاني أبو بكر إبنه وكان وزيرا للمعتمد بن عباد ومات مقتولا و هم من أصل عربي وأبوه ابن زيدون من أعظم فقهاء قرطبة و أعلامها البارزين و يقول القاضي عنه" كان متفننا في ضروب العلم جم الرواية والمعرفة فصيحا جميل الأخلاص كتب الدكتور علي عبد العظيم في هذا الصدد قائلا:"كان أبوه ثريا صاحب أموال و ضياع" ويقول المؤرخون عنه أنه توفي أثناء تفقده لضيعة له في البيرة بالقرب من غرناطة فنقلت جثته إلى قرطبة و دفن بها سنة 405 هـ فرثاه صديقه أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء بأبيات تدل على منزلته العالية و مكانه المرموق فقال اذ هو يقول:

أيُّ ركن من الرياسة هيضا و جَموم من المكارم غيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى كى يوافوا به ثراه الأريضا
مثل حمل السحاب ماء طبيبا ليداوى به مكانا مريضا [11]

---

(10) ديوان ابن زيدون لكامل كيلاني و عبدالرحمن خليفة،ص 30

(11) في الأدب الأندلسي للدكتور جودة الركابي،ص 163

ويقول ابن الآبار عنه:

"إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس لأن تاجها "الشرف" وفي عنقها سمط النهر الأعظم وليس في الأرض أتم حسنا من هذا النهر يضاهي دجلة والفرات والنيل تسير فيها القوارب للنزهة والصيد تحت ظلال الثمار و تغريد الأطيار".[12]

نشأته

واهتم والده بابنه منذ نعومة أظفاره و أحضر له الأدباء والمثقفين و كان هو نفسه أول أساتذته إذ كان متفننا في ضروب العلم و لكن تلمذته له لم تطل وذلك لأنه توفي و ابنه في الحادية عشرة من عمره سنة 405هـ/1014م ثم كفله جده لأمه وكان لوالد الشاعر أصدقاء من ذوي المكانة الرفيعة و العلم الغزير ومثل هؤلاء الرجال الأعلام راعواحقوق صديقهم الراحل في ابنه العزيز و انكبوا عليه بالرعاية و التثقيف ومن هنا توافرت لابن زيدون عوامل النبوغ من ثروة مناسبة و بيئة جميلة و عصر مزدهر بالمدينة و الحضارة حافل بأفذاذ العلماء و الأدباء هذا فضلا عن موهبته الفطرية فكان من كبار أساتذته أبو بكر مسلم بن أحمد الذي كان نحويا شهيرا وأديبا بارعا في علم العربية و كتب الأدب والقاضي أبو بكر بن ذكوان وقد ذكر ابن زيدون هذين الأستاذين أكثر من مرة في آثاره ولقي الشاعربكثير من علماء عصره و أعلامه ومن أبرز الأدباء الذين توطدت علاقة الشعر بهم في سن مبكرة أبو الوليد بن جهور فكان

---

(12) ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف، ص 16

وليا للعهد ثم حاكما و أبو بكر بن ذكوان فقد ولى منصب الوزارة واشتهر أمره ثم ولى القضاء بقرطبة وهو منصب جليل كان يفوق منصب الوزارة .[13]

وكان أبو الوليد منذ حداثته ميالا إلى العلم و المعرفة فضلا عن ذلك كانت نشأته في قرطبة التي كانت تعتبر في ذلك الحين ساحة العلوم و الآداب فانكب أبو الوليد على الدرس و البحث والمطالعة و أخذ الأدب عن رجاله المعروفين وكان له ميل شديد إلى علوم العرب و فنون اللغة فحفظ منها شيئا كثيرا كما وعى كثيرا من أخبار الأدباء والشعراء وأمثال العرب و أحوالهم ومسائل اللغة حتى أصبح في مقدمة الشعراء و الأدباء واندمج في مجالس الأدب فصار علما من أعلامها و دعامة من دعائمها فكانت قرطبة حينئذ في أوج وعلا عزها على الرغم من أفول شمس بني أمية بها وأهلها كانوا في رخاء من العيش وأكثرهم كان يميل إلى العلم و الأدب و مجالسة الأدباء فامتلأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل إلى المجون فساعده في ذلك على أن يسبق غيره وأن ينال شهرة واسعة بين أترابه.

وكان للنساء أثر عظيم في المجالس الآنفة الذكر فاتجه الناس إلى الإندماج فيها و استعذبوا بهذا المورد فكان لذلك أثر كبير في أخلاق الأدباء و صورة البلاغة من نظم و نثر فكأنما صاغت كل صبغة جدية في المجامع الأدبية فجرُؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون فكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء فجذب إليه أنظار الناس.

ابن زيدون وولادة

---

(13) في الأدب الأندلس للدكتور جودت الركابي،ص 165

ومما لا شك فيه أن الحب يلعب دورا خطيرا في حياة الشعراء و في تلوين فنهم.ومن هنا نلاحظ أن علاقة ابن زيدون بولادة قد ألهمته أروع ما صاغه من الشعر وفي نفس الوقت خلفت له خصوما أقوياء وبمناسبة هذا المكان يبدو من الملائم أن نتقدم بكلمة عن شخصية ولادة التي نفخت في شعر ابن زيدون روح الحب والمودة والغرام.

ولادة كانت زهرة من زهرات البيت الأموي الكريم فهي ابنة الخليفة محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفي بالله الذي جاء قبل المعتمد بالله آخر خلفاء بني أمية في الأندلس والذي كان واهنا متخلفا مقصرا في أداء واجباته الرسمية وقد وصفه أبوحيان مؤرخ الأندلس قائلا:

> "كان مجبولا على الجهالة عاطلا من كل خلة تدل على فضيلة معروفا بالتخلف و الركاكة مشتهرا بالشرب و البطالة سقيم السر و العلانية ، أسير الشهوة ، عاهر الخلوة ". [14]

وقد تزوج من أمة مسيحية حبشية هي بنت سكرى المورورية وجاءت ولادة على العكس من أبيها فهي كانت رئيسة الطبع كريمة النفس شريفة الأصل جميلة الشكل ومع أن للوراثة أثرها المحتوم فليس من الضروري دائما أن يرث الابن صفات أبويه فيمكن أن يرث صفات أجداده الأبعدين و مما لا شك فيه أن أجداد ولادة كانوامن أفذاذ الرجال و مما يبدو أن أبا ولادة عني بها فأحضر لها المعلمين والمؤدبين ولم تلبث أن تفتحت مواهبها وسرعان ما أصبح بيتها قبلة الأدباء والشعراء يقول ابن بسام في هذا الخصوص:"وكان مجلسها في قرطبة

---

(14) ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف، ص 18

منتدى لأحرار المصر و فناءها ملعبا لجياد النظم و النثر يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها و يتهالك أفراد الشعراء و الكتاب على حلاوة عشرتها إلى سهولة حجابها و كثرة منتابها .

ولم تكن تصنع ذلك بوقار بل كانت تخلطه بدل و عبث و استهتار و صور ذلك ابن بسام فقال " على أنها- سمحها الله لها وتغمد زللها – اطرحت التحصيل و أوجدت إلى القول فيها السبيل لقلة مبالاتها و مجاهرتها و لذاتها كتبت على أحد عاتقي ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي و أتيه تيها
وأمكن عاشقي من صحن خدي و أعطي قبلتي من يشتهيها [15]

أما صفاتها الجسمية فديوان الشاعر حافل بوصف جمالها الرائع و سحرها الجذاب وميولها الأدبية والشعرية فكانت بيضاء الوجه، صفراءالشعر وبهذا يصفها ابن زيدون إذ يقول:

أوصاغه ورقا محضا و توجه من ناصع التبر إبداعا و تحسينا

وكانت ممشوقة القوام، طويلة العنق،بارزة الصدر،دقيقة الخصر،رابية الردف مع عينين معسولتين.

وكان يجمع فيها جمال الخلقة مع جمال التزين و عذوبة الحديث فيقول ابن زيدون في وصفها:

---

(15) ظهر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ،ص 159

له خُلق عذب و خَلق محسن وظرف كعرف الطيب أو نشوة الخمر

يعلل نفسي من حديث تلذه كمثل المنى والوصل في عقب الهجر

ومما يروى عن خفة روحها أنها مرت يوما على دار ابن عبدوس فرأته جالسا و أمامه بركة متولدة من كثرة الأمطار فلما رأى ولادة " نشركميه و نظر في عطفيه وحشد أعوانه إليه فقالت له : أبا عامر

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فتركته لا يحير حرفا ولا يرد طرفا" [16]

وبما أنها كانت تحسن الضرب والإيقاع على الآلات الموسيقية فكانت تهوي إليها أفئدة الشعراء وكانت هي تشعل في قلوبهم نار الهوى و الهيام وكان ابن زيدون من جملة الشعراء الذين كانوا يقصدون منتداها الأدبي وهو في ميعة الشباب وفي هذا المنتدى توطدت بينهما أواصر الصداقة فوقع في أشراك حبها.

وصف ابن زيدون أول لقاء معا قائلا:" لما قدر الله اللقاء وساعد القضاء كتبت إلي "

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالشمس لم تطلع و بالبدر لم يسر [17]

وذهب ابن زيدون للقائها حسب موعد المضروب وصف ابن بسام هذه الخلوة على لسان الشاعركما يلي: "فلما طوى النهار كافوره و نشر الليل عنبره أقبلت

---

(16) ديوان ابن زيدون لعلي عبد العظيم،ص 32

(17) نفح الطيب للمقرئ ، المجلد 5 ،ص 337

بقد كالقضيب و ردف كالكثيب وقد أطبقت نرجس المقل على ورد الخجل فملنا إلى روض مدبج وظل سجسج وقد قامت رايات أشجاره و فاضت سلاسل أنهاره ودر الطل منثور وحبيب الراح مزرور فلما شببنا نارها و أدركت فينا ثارها باح كل منا بحبه و شكا إليه ما يقلبه وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور فلما انفصلت عنها صباحا أنشدتها ارتياحا:

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد ني تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى حفظ الله زمانا أطلعك
إن يطل بعدك ليلة فلكم بت أشكو قصر الليل معك [18]

لقد وصف ابن بشكول ولادة في كتابه "الصلة" وقال:

"إنها كانت أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر و كانت تناضل الشعراء و تساجل الأدباء و تفوق البرعاء و عمرت طويلا ولم تتزوج قط. [19]

ولادة وابن زيدون

ومن الملاحظ أن ولادة كانت دائما مقرونة بأبي الوليد أحمد بن زيدون المخزومي الوزير الشاعر الذي منحته الكثير من الحب و وهبته الوفير من الود فقال فيها أجمل الغزل و أرقه وأنشات فيها الرائق من الأبيات اللطاف والعذب

---

(18) في الأدب الأندلس للدكتور جودت الركابي،ص 168

(19) الأدب الأندلسي للدكتور مصطفى شكعة،ص 178

من القصائد الآسرة ولا ريب أن ولادة كانت هي الأخرى تهيم بالشاعر فكانت تكتب إليه فهي تقول:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر [20]

قد التقى ابن زيدون ولادة مرارا و تكرارا وجرت بينهما أسمار يتدخلها عزف جارية فكانت منتدى ولادة غامرا بالشعر والموسيقي والغناء وكانت لها جارية سوداء حسنة الصوت، بارعة العزف إسمها "عتبة" التي غنت ذات ليلة :

أحبتنا إني بلغت مؤملي وساعدني دهري وواصلني حبي
وجاء يهنيني البشير بوصله فأعطيته نفسي وزدت له قلبي [21]

قد أحسنت عتبة أداء هذين البيتين وقد دفع هذا الأداء ابن زيدون إلى التحمس لها و التماس إعادة اللحن فتتحرك غيرة المرأة المحبة في خاطر الشاعرة الأميرة فتنشئ أبياتا تذكر فيها جمالها و كبريائها فتعنف ابن زيدون بقول يتأرجح بين الشدة واللين في أسلوب رائع فصرخت ولادة قائلة:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركت غصنا مثمرا بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني بدر السما لكن دهيت لشقوتي بالمشتري [22]

---

(20) ابن زيدون للدكتور شوق ضيف،ص 20

(21) الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه للدكتور مصطفى الشكعة،ص 183

(22) ابن زيدون للدكتورشوقي ضيف ،ص 20

وهي كأنثى تحب الأناقة والزينة فتحبها في شخصها و تحبها في شعرها ومن ثم شبهت نفسها بالغصن المثمر كما جعلت من نفسها ندا للبدر في السماء.

تقول ولادة شاكية فراق صاحبها ابن زيدون الذي قد غاب عنها لفترة من الزمن :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي
وقد كنت أوقات التزاور في الشتا أبيت على جمر من الشوق محرق
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبل مغدق [23]

ولا شك في أن ولادة في غزلها هذا متماسكة بالقياس إلى غيرها من الشاعرات الأندلسيات وهي تحسن الإفصاح عن مشاعرها بدون ما تعثر أو تصنع ومما يبدو أن المعاني طوع يديها فهي تصوغها في يسر و بساطة غير عامدة إلى النحت أوالتصوير و إنما مستهدفة حسن التعبير .

بعد قراءة هذه الأبيات يجيب ابن زيدون في نفس البحر والقافية ويقول :

لحى الله يوما لست فيه بملتق محياك من أجل النوى و التفرق
وكيف يطيب العيش دون مسرة ؟ وأى سرور للكئيب المؤرق؟ [24]

ولم تكن ولادة شاعرة غزلة فحسب بل كانت هجاءة مريرة الهجاء ربما فاقت بعض الهجائيين من الرجال فضلا عن النساء كانت في عصرها شاعرة إسمها نزهون القلاعية وقد عرفها الكثيرون من المؤرخين بأنها هجاءة و أصبح الهجاء صفة من صفاتها أما ولادة فلم تجر صفة الهجاء مرتبطة بإسمها

---

(23) ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف ، ص 21

(24) نفح الطيب ،للمقرى ،المجلد 5، ص 338

أو بشعرها ومع ذلك فهي أهجى من "نزهون" إنها أنشات هجاءها في ابن زيدون وما قالته في الهجاء لا يزيد كل مرة عن بيتين ولكنهما مثل لسعة السوط بل ضربة السيف إنها لقبت ابن زيدون بالمسدس ثم قالت فيه :

ولقبت المسدس وهو نعت تفارقك الحياة ولا يفارق
فلوطي و مأبون وزان وديوث و قرنان و سارق [25]

فهل هناك هجاء أفحش من هذا؟ بلى إن لها فيه و في غيره هجاء بلغ من الفحش درجة لا نكاد نصدق معها أن هذا الشعر لرجل سوقي فضلا عن أميرة أنثى لقد مر ابن زيدون بكل هذه الحالات من البؤس والشقاء بعد الحرية و الانطلاق وكان حبه لولادة سببا مباشرا من أسباب نكبته فقد نافسه في حبها الوزير ابن عبدوس وقد قربته إليها بعض الوقت ولكن ميلها في أكثر حالاتها كان إلى ابن زيدون دون ابن عبدوس وكان ابن زيدون يتحدى ابن عبدوس في أيهما يفوز بقلب الأميرة الجميلة الشاعرة فكانت الغلبة لابن زيدون في نطاق الحب و الشعر و من الأبيات الجيدة التي قالها ابن زيدون متحديا الوزير أبا عامر بن عبدوس:

أثرت هزبر الشرى إذ ربض ونبهته إذ هدا فاغتمض
وما زلت تبسط مسترسلا إليه يد البغى لما انقبض
أبا عامر أين ذاك الوفاء إذا الدهر وسنان والعيش عض
هي الماء يأبى على قابض و يمنع زبدته من محض [26]

---

(25) ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف، ص 21

(26) نفح الطيب للمقرى ،جلد 5 ،ص 341

ويمضي ابن زيدون في قصيدته هذه لا شك في أن غيرته الشديدة قد دفعته إلى ذكر بعض المعاني التي تنال من ولادة أكثر من نيلها من ابن عبدوس مثل قوله التالي:

و نبئتها بعدي استحمدت بسير إليك لمعنى غمض
أبا عامر عثرة فاستقل لتبرم من ودها ما انتفض [27]

غزل ابن زيدون في ولادة

لقد هام ابن زيدون بولادة هياماجعله يسلك في شعره الغزلي مسالك من المعاني المستحدثة العذبة السهلة لم تجرعلى لسان شاعرآخر في مثل حالته و من الطريف أن أجمل شعر ابن زيدون و أرقه و ذلك الذي قاله في فترات الجفاء التي كانت تستحوذ على قلبه بسبب علاقة ولادة مع ابن عبدوس و ذلك الذي قاله وهو هارب أو وهوفي المنفى بعيدا عن قرطبة على أية حال فله أبيات جميلة أيضا في فترات مودتهما و صفاء ما بينهما و كان يجري بينهما من العتاب العذب وكان الشاعريجري في المضمارالذي مهده له حبه منذ أن قال أبياته التي مطلعها:

ودع الصب محب ودعك ذائع من سره ما استودعك

يؤكد ابن زيدون معاني الحب و خفقات الصبابة في نفسه فينشئ أبياتا عذبة في وصف ولادة يرضى بها كبرياءها و يبرر جفاءها على أنه دلال منها فهي تمنع شأن دلال المعشوقات وصار هو العاشق الذي يغار و يشكو السهر و يصور لمحبوبته المعاني التالية:

---

(27) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة، ص 240

أنت و الشمس ضرتان ولكن لك عند الغروب فضل الطلوع
إنما أنت و الحسود معنى كوكب يستقيم بعد الرجوع [28]

و تحدث فجوة في علاقة ولادة مع ابن زيدون فلا يستطيع الشاعر المحب تحملها و يحل فتور لا يستطيع إنكاره فيبعث إليها بأبيات من العتاب الشديد صيغت في ألفاظ ذهبية وعبارات هي بعينها السحر الحلال كما هو يتبين مما يلي:

أأسلب من وصالك ما كسيت؟ وأعزل عن رضاك وقد وليت
وكيف وفي سبيل هواك طوعا لقيت من المكاره ما لقيت
أسر عليك عتبا ليس يبقى و أضمر فيك غيظا لا يبيت [29]

وكلما زادت ولادة تدللا اذداد ابن زيدون تذللا و يشكو و يألم و يعاتب و يندم ويتمنى كل هذه المعاني والمشاعر فيقدمها في أبيات يعمد فيها إلى الرقة عمدا و من ثم فهو يحاول أن يصلح ما فتر من علاقته بها عن طريق الباب الذي دخل منه أول مرة كما هو واضح من الأبيات المفرطة الرقة التالية:

أيوحشني الزمان و أنت أنسي؟ و يظلم لي النهار و أنت شمسي
و أغرس في محبتك الأماني فأجني الموت من ثمرات غرسي
ولو أن الزمان أطاع حكمي فديتك من مكارهه بنفسي [30]

---

(28) ذخيرة لابن بسام، ج 1 ،ص 369

(29) ديوان ابن زيدون للدكتور علي عبد العظيم، ص 55

(30) ديوان ابن زيدون لعلي عبد العظيم ، ص 60

وإذا كان ابن زيدون قد عمد في مقطوعاته السابقة إلى مخاطبة قلب الشاعرة في ولادة فإنه يحاول في أحيان أخرى أن يخاطب فن الشاعرة أو يخاطب كلا من قلبها و فنها كما هو يقول:

بيني و بينك ما لو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يا بائعا حظه مني ولو بذلت لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك إن حملت قلبي ما لم تستطع قلوب الناس يستطع [31]

وفي هذه الأبيات المذكورة نجد أن ابن زيدون يخاطب بها قلب ولادة فالمعاني كلها معاني حب و لوعة وإيثار و تلك طباع العاشقين و لغتهم .

ثم تبدلت الأيام لابن زيدون وعلاقته بولادة تتطور من سيئ إلى أسوأ و تنصب له المكائد و يتهم بالتواطؤ على حكومة قرطبة و يلقي الشاعر الأنيق الأديب الرقيق في السجن ثم يحاول الإفلات من سجنه و يختبئ بعض الوقت في الزهراء ضاحية قرطبة الجميلة و يرسل إليها قصيدة عمد فيها إلى وصف الأجواء التي كان يلاقي فيها ولادة من ربيع و أنسام و رياض و مياه و وصف الأزهار و الورود والأشجار كما هو يقول:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق و مرأى الأرض قد راقا
و للنسيم اعتلال في أصائله كأنه رق لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتم وبقينا نحن عشاقا [32]

---

(31) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة،ص 54

(32) ديوان ابن زيدون لعلي عبد العظيم، ص 25

ويتم العفو عن ابن زيدون بفضل سعي أبي الوليد بن جهور لدي أبيه حاكم قرطبة أبي الحزم و يقترب الشاعر منهما و ينال تكريما في المكانة و يعمل وزيرا و سفيرا لبني جهور لدى ملوك الطوائف ولكنه يظل يشكو هجر ولادة ثم يحدث من أمور السياسة ما يجعل ابن زيدون يترك قرطبة إذ لا مناص له من أن يفر و يضرب في أكناف بلاد الأندلس الجميلة و ينزل في إشبيلية ولكنه ما فتي يذكر عباد و ولادة حيثما ذهب و أينما حلّ ذات يوم نزل على بني عبد العزيز في بلنسية و لقي من أسباب التكريم ما هو به جديرفبدأ يتفكر في حبيبته ووجد المسافة نائية بينه و بين من يحبه إذ هي في قرطبة فيشوق إليها بمعنى صاغه في البيتين التاليين ولكنهما يعدلان قصيدة كاملة من الشعر الجيد فيقول:

غريب بأقصى الشرق يشكو للصبا تحملها منه السلام إلى الغرب
وما ضر أنفاس الصبا في احتمالها سلام هوى يهديه جسم إلى قلب

وفي الواقع أن هذا لون جديد من شعر العشق جاءت به روح الأندلس ولعبت في معانيه روح الحضارة بحيث أن الشاعر يريد أن يحمل نسمات الصبا سلام جسمه في بلنسية إلى قلبه الذي تركه في قرطبة ثم كان هذه الصياغة الجميلة التي زادت المعانى رقة و طلاوة .

ويزداد شوق ابن زيدون إلى ولادة في اغترابه فيصدح كما يصدح الطائر المهاجر شجنا لفراق أيكته فينشد هذه الأبيات:

يا نازحا وضمير القلب مثواه أنستك دنياك عبدا أنت مولاه
ألهتك عنه فكاهات تلذ بها فليس يجري ببال منك ذكراه [33]

---

(33) ديوان ابن زيدون لعلي عبد العظيم ، ص 68

ويشتاق ابن زيدون إلى قرطبة اشتياق العاشق الملتاع فهي ملهى صباه و مرتع صبابته و مستقر حبيبته فهي عنده مثل جعبة معاني الشوق التي لا تنفد بل تنفجر منها أسباب التعبير التي لا يغيض بل يفيض بكل معجب و يزود قريحة الشاعر بمعان جديدة لكي يصوغها صياغة فريدة مسمطة و يتضمن هذه الصياغة الرائعة الذي اعتبره بعض الدارسين موشحة و ما هو بموشحة ولكنه مرحلة من مراحل الشعر وهو يأخذ طريقة إلى صورة الموشحات.

سقى الغيث أطلال الأحبة بالحمى وحاك عليها ثوب وشى منمنما
وأطلع فيها للأزاهير أنجما فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى
إذا العيش غض والزمان غلام [34]

وهكذا تسدي ولادة إلى الشعر العربي منة كبرى لما أوحته من أحاسيس و عواطف و أشواق جعلت ابن زيدون يشدو بتلك الأنشدة الرقيقة التي نجد نظيرها إلا قليلا.

نونية ابن زيدون في ولادة

على مدى التاريخ ظل نونية ابن زيدون تعتبر من عيون الشعر العربي شرقا و غربا لقد استجمع ابن زيدون كل شاعريته وفجر كوامن عواطفه لتكون هذه النونية عبرة لكل محب وكنزا لكل أديب ومثلا لكل شاعر.

إن لكل معنى من هذه المعاني مكانا رحبا فيها بالاضافة الى زينة خفيفة تتمشى في حواشي القصيدة دون إسراف من طباق و تجنيس و مقابلة و افتنان

---

(34) ديوان ابن زيدون لعلي عبد العظيم ،ص 46

مما جعل هذه النونية أثرا ساميا يحتذى و يقلد حتى الآن فيقول ابن زيدون في مطلع هذه القصيدة:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وطاب عن طيب لقيانا تجافينا
من مبلغ الملبسين بانتزاحهم حزنا مع الدهر لا يبلى و يبلينا
إن الزمان الذي ما زال يضحكنا أنسا بقربهم قد عاد يبكينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لو لا تأسينا [15]

وفي الواقع هذه القصيدة آية من آيات الشعر العربي و العالمي إذ هي ليست قصيدة حب و حنين فقط بل هي لوحة وجد و شوق و من أشهر القصائد التي تناقلتها المحافل الأدبية منذ ولادتها.

آثارابن زيدون في مجال الشعر

بعد فراغ الحديث عن عصر الشاعر وعن الترجمة المسهبة لحياته و هيامه لولادة يبدو من المناسب أن نستعرض و نقدم هنا ما قاله إبن زيدون من الشعر ففيما يتعلق بديوانه فليس لدينا ما يثبت أن الشاعر جمعه بنفسه أو أن أحدا جمعه في عصره وإن كان " أوغست كور " يذكر أن معاصري الشاعر جمعوا ديوانه و بخاصة ابن حيان ولكنه لم يذكر المصدر الذي استقى منه هذا الخبرفهذا الأمر يضع هذا الخبر في محل الشك و الارتياب يقول الاستاذ علي عبد العظيم بخصوص ديوانه إن أبا العطاف بني حيي كان مولعا بجمع الشعر فسأل مرة ابن زيدون أن يطلعه على نبذة من شعره فمطله حتى توسل إليه بالمعتمد بن عباد فلم يجد الأستاذ علي عبد العظيم في المراجع التي عني

(35) ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف،ص 49

بتسجيل الكتب أي إشارة إلى الديوان لابن زيدون و أول خبر يصل إليه الأستاذ علي عبد العظيم عن ديوان الشاعر ما ذكره ابن نباتة المتوفى سنة 768ه من أنه وقف على ديوان شعري لابن زيدون و على كثير من ترسله .

وقد اعتمد علي عبد العظيم في نشر ديوان ابن زيدون على أربع نسخ خطية وهي كما يلي:

1- النسخة رقم 496 أدب بدار الكتب المصرية وتقع في 179 صفحة.
2- النسخة رقم 555 أدب بدار الكتب المصرية كتبها عبد الرحمن ابن عبدالله الحسيني البغدادي سنة 1288ه في 153 صفحة.
3- النسخة رقم 76 شعر تيمور بالمكتبة التيمورية وهي أجود نسخ خطا وأحسنها تنسيقا مكتوبة سنة 1308 ه.
4- و النسخة 443 أدب بمكتبة الأزهر بخط محمد بن عبد الله الزمراني [36].

والنسخ جميعها متشابهة في الترتيب و تسقط منها جميعا بعض الأبيات مما يرجح أنها من مصدر واحد أو أنها اعتمدت على النسخة الأولى مع محاولة بعض التحقيق في الأخريات .

وقد طبعت ديوان ابن زيدون مرتين أولاهما بالقاهرة وذلك بمطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة 1932 م مع شرح و تحقيق الأديبين كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة وقد بذل الناشران جهدا مشكورا في سبيل تحقيق النصوص

---

(36) ديوان ابن زيدون لعلي عبد العظيم ص 48

و تصحيح ا لتحريفات و اجتهدا في ملأ بعض العبارات المتروكة وأضاف إلى هذا الديوان رسائل الشعر و التعليقات من الكتاب القدماء و المحدثين إلا أنهما لم يؤديا حق التأليف كاملا وذلك لأن بعض النقائص حسب قول الأستاذ كما يقول علي عبد العظيم يوجد في هذا الديوان ومن هذه النقائص:

1- أنها غير مرتبة على نسق معلوم .
2- أخطأ كلا الناشرين في التوفيق بخصوص بعض التصحيحات أو الشروح وذلك على الرغم مما بذلاه من جهد مشكور.
3- خلط الناشران بين الأسماء خلطا عجيبا مثل أبي الحزم بن جهور وبن وليد بن جهور .
4- أغفلا بعض القصائد الديوان في و بعض الأبيات من قصائده.
5- لم يشيرا إلى مختلف الروايات الواردة في نسخ الديوان و المصادر القديمة.

أما الطبعة الثانية فقد قام بها الأديب اللبيب كرم البستاني وطبعها بمطبعة المناهل ببيروت سنة 1951 م

ثم قام الأستاذ علي عبد العظيم بطبع هذا الديوان الذي صحبه ابن زيدون حقبة طويلة من الزمن وأخرج فيها بحثا عظيما عن عصره و حياته و أدبه و نال به درجة الماجستير بتقدير ممتاز من جامعة القاهرة .

و وضع الأستاذ علي عبد العظيم لكثير من القصائد مقدمات تفسر الجو الذي قيلت فيه و شرح ما يحتاج للشرح من مفردات أو أبيات شرحا موجزا وقد رعاه في ترتيبها موضوعات الفنون مع ملاحظة الترتيب الزمني بقدر الإمكان و بذلك أصبحت هذه الطبعة غاية في الجودة والإتقان.

مساهمة ابن زيدون في مجال النثر

الرسالة الهزلية

طبعت هذه الرسالة لأول مرة مع ترجمة لاتينية سنة 1755م في مدينة ليبسك من قبل المستشرق رايسك و طبعتها المستشرق "هيرت" مرة ثانية في إيينا سنة 1770م مع الشرح الذي قام به ابن نباتة الأندلسي 1366 م وطبعت في القاهرة سنة 1278ه تحت عنوان"سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ولهذا الشرح عدة مخطوطات موزعة في المكتبات الأوروبية.

الرسالة الجدية

وقد شرحها الصفدي المتوفى سنة 764ه في كتاب سماه "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون" لها شرح ثان طبعه مصطفى عناني بالقاهرة سنة 1906م في كتاب سماه "إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون" وطبعت أيضا بالقاهرة 1929 م بعنوان "الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون" كما طبعت في بغداد سنة 1327ه .

اشتهر ابن زيدون برسالتيه السالفتين الذكر فالرسالة الأولى كتبها على لسان ولادة يتهكم على ابن عبدوس و ينال منه لمشاركته في غرامه وهي رسالة طريفة من حيث الأسلوب جمعت بين أفانين التهكم و ضروب المعرفة .

وأما الثاني فهي التي كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور ليعيد إليه حريته المسلوبة وهي لا تقل جمالا ولا إبداعا عن سابقتها.

خصائص الرسالتين الأسلوبية

هاتان الرسالتان قويتا الصلة بحياة الشاعر فالرسالة الهزلية تتصل بحياته العاطفية وما اشتملت عليه من حب و منافسة و الرسالة الجدية تتصل بحياته السياسية و ما رافقها من سجن و استعطاف .

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال لاحتوائهما على كثير من الأسماء التاريخية و الأمثال العربية واقتباس أبيات من الشعر جاءت في أثناء صياغة الكلام وكأنما عملت من أجله أو قبست على سمته و ليس من السهل اقتباس المثل في أمكنته ولا من الهين أن يخوض الإنسان غمار الأدب الواسع و يسهل عليه الاختيار منه و يحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ويميز بين الجيد و غيره و يختار ما يناسب المقام ثم يصوغ ذلك كله في قالب واحد و يضم بعض أجزائه إلى بعضها و يمخضه كما يمخض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر.

ويقول الدكتور جودة الركابي في كتابه "في الأدب الأندلسي" أن الرسالة الأولى قد استطاعت أن تبلغ ما تريد من السخرية بمنافسه ابن عبدوس على رغم تكلفها و التزام السجع و الصناعة فيها وقد تصل السخرية فيها أحيانا إلى حد سلاطة اللسان فتبعد عما يقتضيه التهكم من رقة و دقيق ولهذا فهي تتصف بالانفعال القوي الصريح المعبر عن سخط الشاعر و ألمه من منافسه الذي لعب بقلب من أحب ابن زيدون و لعبت هي به.

أما الرسالة الجدية فانها لم تستطع أن تبلغ هدفها في استعطاف أبى الحزم ابن جهور لما في أسلوبها من تكلف و غريب ولما احتوته من الأسماء التاريخية

والاشارات الأدبية التي تلهي القارئ وتجعله ينصرف إلى استقصاء معانيها و فهم مقاصدها وحل رموزها .

وفي الواقع أن موضوع الإستعطاف يقتضي دقة في العاطفة و تلهفا حارا يرسم المستعطف في عذاب و ضيق و هذه الصفة لا تظهر جلية في هذه الرسالة وإنما الذي يسيطر عليها فهي الصنعة و المعرفة التي تتجلى خلال عباراتها فتأتي الرسالة متنا مشحونا بالأمثال و الوقائع و الأشعار و الرسالتان تعكسان خصائص أسلوب ابن زيدون في النثر فهو لا يلتزم السجع دائما .

وعلى الجملة فأسلوب ابن زيدون في نثره قوي جزل كشعره و إنه لا يتقيد بالسجع و لكنه لا يترك الموازنة فجمله متشابهة في النغمة متناسقة في الطول وقد حظيت هاتان الرسالتان بشهرة كبيرة في الأدب العربي لبراعة أسلوبهما و لما احتوتا من أفانين القول وحوادث التاريخ و أسماء رجاله ولما ضمتاه من الشعر الجيد والأمثال المناسبة.

الباب الثالث

الجانب الغنائي في شعرابن زيدون

شاعرية ابن زيدون

ولكل شاعرمن الفحول ميزة خاصة يمتاز بها شعره فاذا امتاز المعري بالفلسفة في شعره و امتاز المتنبي بالحكمة وامتاز ابن الرومي بالغوص على المعاني النادرة وامتاز أبو العتاهية بالزهديات و أبو نواس بالخمريات و البحتري بحسن النظم و أبو تمام بالصناعة و ابن حمد يس بالوصف و هكذا تفرد ابن زيدون من شعراء العربية بالفن، وهو شاعر فني قبل أن يكون فيلسوفا أو حكيما أو غواصا على المعانى.

الفن وحده هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره و أغرى فحول الشعراء في زمنه و بعد زمنه في محاكاته و الانضواء تحت رايته فهو شاعر الفن الذي جعله أمير الشعراء في حين قال:

"بأبي أنت هيكلا من فنون مركبا"[1]

فيمكن لك أن تجد عنده صورة فنية قد وصلت إلى ذروة الكمال وقلما اشترك ابن زيدون مع شاعر آخر من الفحول في معنى من المعانى إلا بزه ابن زيدون بفنه و أعجزه ببيانه الساحر المعجب حتى البحتري الذي كان النقاد يلقبون به ابن زيدون وكثيرا ما اشترك معه ابن زيدون في صور شعرية إلا أن صور ابن زيدون قد فاقت صور البحتري.

أطلق أهل الغرب لقب البحتري على ابن زيدون كما أطلقوا لقب المتنبي على ابن هانئ لإعجابهم بشعراء المشارقة المشهورين ولا سيما الأقطاب الثلاثة أبو تمام وأبو عبادة البحتري و أبو الطيب المتنبي وقد رأوا في لغة ابن زيدون و إشراق

(1) ديوان ابن زيدون لكامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة ، ص 37

ديباجته ما يشبه رونق الديباجة البحترية في وضوحها وائتلاف ألفاظها و حسن إيقاعها و إتقان الصنعة فيها وإن تكن لغة البحتري أجزل و أدخل في كلام العرب من لغة الشاعر المغربي.

ويتميز ابن زيدون بغزله العاطفي الرقيق فلا يلحقه البحتري في هذا المضمار ولا سيما غزله بولادة لما فيه من حرقة و غيرة و تلهف وحرمان وهو كالبحتري لا يتطلب المعاني المبتكرة ولا الصور العميقة بقدر تطلبه حلاوة اللفظ و طرق البيان في تأدية المعنى الذي يلوح له وقلما حفل بالحكمة و ضرب المثل وأكثر آرائه من الأفكار المشتركة التي لا يستقل بها شاعر عن آخر، و أجاد المدح و الرثاء والعتاب و الاستعطاف على غيرتذلل،و أجمل معاتباته ما قاله في سجنه متشوقا إلى ولادة و قرطبة .

منزلته

أجمع النقاد على أن ابن زيدون شاعر من الطبقة الأولى من شعراء الأندلس فقد كان قوى الكلام وجيد التعبير الأدبي يشتد و يلين القول في ديباجته الشعرية حسب ما يقتضيه الأمر و يدعو إليه الغرض فيقول الدكتور جودت الركابي "أن شعر ابن زيدون يدل على أنه طبع بالطوابع العربية الأصيلة وكان نتيجة لثقافة عربية متينة و تمرس بشعر الأقدمين و تأليفهم ولذا جرى على الشائع المعروف من أساليبهم إلا أن ابن زيدون استطاع أن يلبس أقواله شخصيته أن يصدر فيها عن عصره و وحيه .[2]

---

(2) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي ،ص 204

وعبر الدكتور شوقي ضيف عن رأيه تجاه ابن زيدون قائلا: "وكان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعاني القديمة أو الموروثة في عملة أندلسية جديدة فيها جمال الفن و بهجة الشعر و ما يفصح عن أصالته و شخصيته و ابن

زيدون من خير النماذج التي تكشف لنا المنزعين فهو لا يخرج في شعره عن القواعد الموروثة وفي الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان فيه من حضارة و ترف باذخ وإغراق في الحس و الخمر واللذة فاتصاله بالماضي لم يحل بينه و بين تصوير الحاضر التي عاش فيه [3].

ويقول ابن بسام في كتابه"الذخيرة":

"كان أبو الوليد ابن زيدون غاية منظوم و منثور وخاتمة شعراء مخزوم أحد من جر الأيام جرا و فاق الأنام طرا وصرف السلطان نفعا و ضرا ووسع البيان نظما و نثرا، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ولا للبدر تألقه وشعر ليس للسحر بيانه ولا للنجوم الزهر اقترانه و حظ من النثر غريب المعاني ، شعري الألفاظ والمعاني". [4]

ويمدح الدكتور أحمد ضيف ابن زيدون قائلا:

"كل قصائد إبن زيدون التي أرسلها يستعطف بها إبن جهور هي إثر ذلك الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور البؤس الذي حرك شعوره و فتق من لسانه و أثار

---

(3) ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف ص 40

(4) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي،205

في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة هما و غما، ولكن أسلوبه في الشكوى و الاستعطاف واحد في نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من المعاني برسالته الجدية وكأنما كان فكره سجينا مثله من شدة تألمه في السجن فإنه لم يخرج عن عادته في ضرب الأمثال والفخر بنفسه وأنه أفضل إنسان و أكرم من دب على وجه الارض، غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق،رقيق الحاشية تظهر عليه سيما الابتكار و الصدق في التعبير فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة بل به كثير من الحقائق التى كان يميلها عليه شعوره"[5]

ويبين الدكتور جودت الركابي هذه الميزة لابن زيدون بكلماته التالية:

"إذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني التي لم يسبق إليها، وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس و تستولي على القلوب و كأن الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبيرو الأسلوب ولقد يسمع الانسان أنينه في شعره ويرى أنته الحزينة من خلال كلامه و كأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسي اللذين يملآن نفوس العشاق و يمتعان عنهم راحة الحياة و لذاتها".[6]

وبصرف النظر عن هذا كله نلاحظ أن الباحثين الغرب قد أشادوا بعبقرية ابن زيدون ووضعوه منزلة رفيعة بين كافة الشعراء العرب الأندلسيين فيقول "كور":

---

(5) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي،ص 205

(6) الرجع السابق ،ص 206

" إن أسلوب إبن زيدون النقي المنهجي استحق أن يكون المثل الأعلى لمن تلاه من الشعراء " وكذلك "نيكل" "أن ابن زيدون كان ممثلا لأنقى أسلوب عربي منهجي في الأندلس ، وأنه يمكن موازنته بالبحتري أو المتنبي ثم يقرر أنه لو لا تاثير ولادة على ابن زيدون لفقد الشعر العربي أعظم جواهره الثمينة " و يمدح "جب" شاعرية ابن زيدون قائلا:" أنه يعتبر على الأرجح أعظم شعراء الأندلس بأغاني حبه المبكر وبرسائله الشعرية في أخريات حياته " وكذلك يقول"غومس": " إنه أعظم شاعر قديم و حديث أنجبته الأندلس "

وقد أثنى "ليفي بروفنسال" شعر ابن زيدون كما يلي:

> "أنه يعد بحق أكبر شعراء العصر الكلاسيكي الأندلسي والمتغني بالحب الذي لا يعدله أحد، وقد أوحى إليه اتصاله بولادة أشعارا رائعة الجمال متميزة في أكثر الأحيان بخلوها من البريق الصاخب الذي تميز به شعر من سبقه من الشعراء ، و شعره إلى ذلك ذو نزعة إنسانية يكاد يشبه شعر الغربيين "وأخيرا ننقل فيما يلي ما قاله " فيليب حتي" في وصف شاعرية ابن زيدون " أن بعض الدارسين يعد ابن زيدون أعظم شعراء الأندلس على الإطلاق" [7]

فنونه الشعرية

ظهر في الصياغة الشعرية للادب الأندلسي تياران قويان أحدهما منهجي (Classic) وفيه الشاعركان يتمسك بالأساليب المعروفة والتقاليد الأدبية، والثاني

---

(7) ديوان ابن زيدون و رسائله لعلي عبد العظيم ،ص 109

إبداعي (Creative) وفيه الشاعركان يحاول التحرر من الأوضاع والتقاليد التي كانت متبعة في عصر ملوك الطوائف وابن زيدون ينتمي إلي المذهب الأول .

وتنقسم حياة الشاعر الفنية إلى ثلاثة أدوار أولها كان تقليديا امتد إلى الثلاثين من عمره وفي هذه الفترة توجد آثار قليلة من شعره ، و الدور الثاني امتد من الثلاثين إلى الخمسين وهو أروع فترة في حياته الفنية وفيه ذاق حلاوة الحب ثم تجرع مرارة الهجر وفيه ارتفع إلى أسمى المناصب ثم انحدر إلى قرارة السجن وظهرت هذه الألوان كلها في فنه فملأت القلوب و بهرت العقول أما الدور الثالث فقد امتد من الخمسين حتى أواخرأيام حياته وكان فيه شيخا يراعى في إنتاجه الأدبي المقتضيات السياسية و الوجبات الرسمية و قد اختفت شخصيته خلف أعباء منصبه.

طرق ابن زيدون أكثر أغراض الشعر الأدبي المعروف لعهده و أجاد أكثر ما أجاد في فنون الغزل والمدح والاستعطاف و الرثاء ، وقد كان شعره صدى لحياته فجاء غزله معبرا عن تجربته الغرامية وجاء مدحه متجاوبا مع حياته السياسية معبرا عن تأزمها و اضطرابها .

الغزل

شعرابن زيدون الغزلي يكاد يكون النغمة التي تظهر فيها أصالة الشاعر فهو شعر انبجس من صميم قلبه و عبر عن حبه و آلامه و بعد دراسة حياة ابن زيدون نصل إلى النتيجة أن حبه لولادة ثم هجرها له ثم يأسه منها و حنينه الدائم لها قد ظهرت هذه كلها في مختلف الأطوار لشعره إلا أن دوره الهجري قد لعب في قلبه لعبا قاسيا شديدا وفجر فيه شعر الحرقة و اللوعة وشعر الذكرى والحنين أما أيام

هناءته و سعادته فقد كانت قصيرة ولذا لا نجد إلا قليلا من المقطوعات التي عبرت عن هذه الهنائة في ألفاظ بسيطة و معان لم تلهبها تجربة الحب الصادق كقوله:

هل لداعيك مجيب؟ أم تشاكيك طبيب؟
يا قريبا حين ينأى حاضرا حين يغيب
كيف يسلوك محب زانه منك حبيب
إنما أنت نسيم تتلقاه القلوب [8]

وفي مكان آخر يقول:

متى أبثك ما بي؟ يا راحتي و عذابي
متى ينوب لساني في شرحه عن كتابي؟
الله يعلم أني أصبحت فيك لما بي
فلا يطيب منامي ولا يسوغ شرابي [9]

فمثل هذه الأبيات يحببها إلى النفس رقتها و ما تعكسه من قلق يغمره الرضى ولكنها لا تلهب النفس لأنها لا تصور حبا عميقا.

فن الغزل

يقول علي عبد العظيم "إن هذا الفن يحيط بديوان الشاعر الثلث تقريبا سواء كان غزلا تقليديا في مقدمة المدائح أم غزلا مستقلا مقصودا لذاته وهي نسبة عالية لا نكاد نجد لها مثيلا عند غيره من الشعراء إلا المنقطعين للغزل وحده مثل عمر بن ابي ربيعة و جميل بن معمر والعباس بن الأحنف وابن زيدون ينفس في غزله عن حبه ، ويبث فيه عواطفه الحارة و يطلق لوجدانه العنان ولو كبت في نفسه هذه

---

(8) ديوان ابن زيدون و رسائله لعلي عبد العظيم، ص 164

(9) نفس المصدر ،ص 149

العواطف الجياشة لوقع فريسة للمرض أو الجنون ولهذا كان غزله يعبر تعبيرا صادقا عن خلجات نفسه و ومضات حسه ونفثات غرامه المشبوب ، وما أجمل تصوير يصوره عند لقاء حبيبته "[10] فهو يقول:

كم بات يدري ليله الغريبا لما انثنى في سكره قضيبا
تشدو حمامة حليه تطريبا هصرته حلو الجنى رطيبا
أرشف منه المبسم الشنيبا حتى إذا ما اعتن لي مريبا [11]

وعندما شاهد نكث عهدها و عدم إيفائها بالوعد صرخ قائلا:

أجدّ، ومن أهواه في الحب عابث وأوفى له بالعهد إذ هو ناكث
تغيرت عن عهدي وما زلت واثقا بعهدك لكن غيرتك الحوادث

ولما يئس من لقاء حبيبته و لاحظ عدم التزامها بوعودها صاح قائلا:

يا مستخفا بعاشقيه ومستغشّا لناصحيه
ومن أطاع الوشاة فينا حتى أطعنا السلو فيه
الحمد لله إذ أراني تكذيب ما كنت تدعيه [12]

وعندما غلبت عليه مشاعر الحب والحنين عاد إلى نفسه ضارعا:

يا بائعا حظه مني ولو بذلت لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك ان حملت قلبي ما لم تستطعه قلوب الناس يستطع [13]

---

(10) ديوان ابن زيدون لعلي عبد العظيم و رسائله ،ص 75

(11) نفس المصدر، ص 156

(12) نفس المصدر،ص 47

وأحيانا يفعم الشاعر أبياته بنفحات من الغزل العذري فهو يقول:

لم أنس إذ باتت يدي ليلة وشاحه اللاصق دون الوشاح
ألممت بالألطف منه ولم أجنح إلى ما فيه بعض الجناح

ويقول أيضا:

و رب ظلام ليل جن فوقي فنبت عن الصباح إلى الصباح
فهل عدت العفاف هناك نفسي فديتك أو جنحت إلى الجناح [14]

ولكن هذه المعاني العذوبة العفيفة لا تعدو خطرات شعرية عابرة ،أما معظم غزله فهو حسي مادي فقد كان ينظر إلى المرأة نظرة الشهوة الحسية لا المتعة الذهنية.

في الحقيقة كان الشاعر مندفعا بفطرته إلى الاستمتاع بالحياة و الإقبال على اللذات والملاهي فلا تبدو العفة في طي شعره إلا حين ييأس من اللقاء أو يتقي الشبهات و في هذه الحالة يتغنى مثل الأبيات التالية:

لئن فاتني منك حظ النظر لأكتفين بسماع الخبر
وإن عرضت غفلة للرقيب فحسبي تسليمه تقتصر
وأصبر مستيقنا أنه سيحظى بنيل المنى من صبر [15]

---

(13) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة ،ص 279

(14) نفس المصدر، ص89

(15) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة،ص ، 272

وهنا ك نوع آخرمن الغزل عند ابن زيدون وهو (غزل المكايدة و العناد) وهو يصوغه حينما يدركه اليأس و يبلغه انصراف حبيبته عنه الي رقيبه فيصف هذه الحالة قائلا:

أكل شهي أصبنا من أطايبه بعضا و بعضا صفحنا عنه للفار

و بعد ذلك يعلن أنه استجد حبا جديدا أنساه حبه القديم كما هو واضح من أبياته التالية:

عاودت ذكر الهوى من بعد نسيان واستحدث القلب شوقا بعد سلوان
من حب جارية يبدو بها صنم من اللجين عليه تاج عقيان
لأستجدن في عشقي لها زمنا ينسي سوالف أيامي و أزماتي
حتى تكون لمن أحببت خاتمة فنسخت في حبها كفرا بإيمان [16]

ثم يرسل إلى حبيبته من ينبئها أنه استبدل بها خيرا منها و أنه سعيد بهذا التغير و تتبلور هذه الحقيقة من أشعاره التالية:

وأشعره أني انتخبت البديل و أعلمه أني استجدت العوض
فلا مشربي لقلاه أمرّ ولا مضجعي لنواه أقض
وإن يد البين مشكورة لعار أماط و وصم رحض [17]

و بما أن الحب العنيف يرتكز على بعض الغرائز التي عددها عند علماء النفس عشرة فإن ابن زيدون كان يرتكزعلى هذه الغرائز كلهاومن هنا نلاحظ أن

---

(16) نفس المصدر،ص 267

(17) نفس المصدر، ص 240

غريزة الضحك وغريزة المقاتلة تبدو بصورة واضحة في رسالته الهزلية وفيما يتعلق بغريزة الخنوع فهي تتبلورفي أبياته الأتية:

لم تبق جارحة بالهجر من جسدي إلا خلعت عليها بالضنى حللا
فليغن كفك أني بعض من ملكت وليكفطرفك أني بعض من قتلا [18]

أما غريزة السيطرة فهي تبدوفي حرصه على أن يفرض سلطانه على حبيبته و يصد عنها منافسه كما هو واضح من الأبيات التالية:

أعد نظرا فان البغى مما لم يزل يصرع
ولاتك منك تلك الدار بالمرأى و لاالمسمع
فان قصارك الدهليز حيث سواك في المضجع [19]

لا ريب في أن هذه الغرائز هي المنابع الأولى للطاقة البشرية وإنها لا يمكن أن تستقل وحدها بتكوين عاطفة سامية، فالغرائز تتساند فتكون عاطفة فردية مادية فإذا علت هذه العاطفة تحولت إلى جماعية معنوية فإذا ازدادت علوا أصبحت عالمية مثالية كما تتجلى في شخصيات الأنبياء و أعلام المصلحين و عباقرة الفنانين.

من الملاحظ هنا أن عاطفة ابن زيدون امتدت من المرحلة الفردية المادية إلى المرحلة الجماعية المعنوية فكثيرا ما يهتف بوطنه و يحن إلى قومه و يناجيهم بعد اغترابه في لوعة و حنين فهو يقول:

---

(18) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، ص 274

(19) نفس المصدر، ص 67

يضيق بأنواع الصبابة مذهبي
إلى كل رحب الصدر منكم معذب
مفضض لأ لأ الأسارير مذهب
ينافس منه البدر غرة كوكب درى أنها أبهى سناء و أضوأ [20]

وكثيرا ما هتف بأيامه و لياليه معهم في لهفة و اشتياق كما هو واضح من أبياته الآتية:

أين أيامنا ؟ و أين ليال كرياض لبسن أفواف زهر؟
و زمان كأنما دب فيه وسن أو هفا به فرط سكر
حين نغدو إلى جداول زرق يتغلغلن في حدائق خضر
في فتو توشحوا بالمعالي و تردوا بكل مجد و فخر [21]

بين الطبيعة والحب

ومن المعلوم أن طبيعة الأندلس ساحرة خلابة و قد صادفت من ابن زيدون إحساسا مشبوبا وقلبا متفتحا و موهبة مواتية فافتن بها أي افتنان وزاد في ولعه بها بحيث أنها ارتبطت بذكريات حبيبته أوثق ارتباط ، وكم طوى معها أياما في جنبات القصر و شواطئ "النبتي" و بساتين و ثنيات "العقاب"وقنوات العقيق!

سقى جنبات القصر صوب الغمائم وغنى على الأغصان ورق الحمائم
بقرطبة الغراء دار الأكارم بلاد بها عق الشباب تمائمي

وأنجبني قوم هناك كرام

---

(20) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة، ص 235

(21) نفس المصدر، ص 172

فكم لي فيها من مساء و إصباح بكل غزال مشرق الوجه وضاح
يفدم أفواه الكئوس بتفاح إذا طلعت في راحه أنجم الراح
فإنا لإعظام المدام قيام
ويوم لدى "النبتي" في شاطئي النهر تدار علينا الراح في فتيه زهر
وليس لنا فرش سوي يانع الزهر يدور بها عذب اللما أهيف الخصر
بفيه من الثغر الشنيب نظام
واكرم بأيام "العقاب" السوالف ولهو أثرناه بتلك المعاطف
بسود أثيث الشعر بيض ا لسوالف إذا رفلوا في وشي تلك المطارف
فليس على خلع العذار ملام
وكم مشهد عند "العقيق" وجسره قعدنا على حمر النبات وصفره
وظبي يسقينا سلافة خمره حكى جسدي في السقم رقة خصره
لواحظه عند الرنو سهام [22]

فكلما نلقي نظرة عميقة على شعر ابن زيدون الغزلي نجد صبغة رومنسية لأن الطبيعة أثارت أشجانه وحركت لواعجه إبان جولاته في ربوع الأندلس العامرة ، هو هارب من السجن في قرطبة و ملتجئ إلى بني عباد في إشبيلية حيث كان يرسل للحبيبة الأميرة و لقرطبة الأثيرة مناجيات وجدانية أبدع فيها أيما إبداع لقد بدا في تلك المناجيات متحدا مع الطبيعة في مختلف مشاهدها فتخيل أن الرياض البهية و النسائم العليلة والمياه المترقرقة تشاطره اللوعة على فراق من يحب لا سيما عندما توقف في مدينة "الزهراء " عقب فراره من السجن إذ هو ينشد قائلا:

---

(22) ديوان ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف ،ص 59

إني . ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق و مرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنما رق لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى بكت لما بي فجال الدمع رقراقا [23]

وقد أعجب "نيكلسون"بهذه القصيدة الرائعة وضربها مثالا لتوضيح الشعور العميق بالطبيعة التي يتميز بها الشعر الأندلسي. [24]

وهذا الشعورالقوي بالطبيعة ممتزجة بالحب العنيف نجد له مشابه قوية عند الشعراء الغربيين ولهذا قرر بعض المستشرقين أن للأندلس أثرا قويا في شعر الطبيعة الغربية التي يربط بين الطبيعة والحب عند الموهوبيين.

الحب الأسطورة

كانت غربة ابن زيدون عن قرطبة وولادة حافزا قويا لمناجاته ولتصويرعواطفه المشبوبة نحوهما و شوقه المبرح إليها بأسلوب سلس تفرد به كما اتسم بجرس موسيقي عذب وديباجة رشيقة .

وقد أصبح حب ابن زيدون لولادة أسطورة في تاريخ الأدب العربي و ما زالت تحث الكتاب والشعراء في المشرق والمغرب على استلهامها سواء أكانت ولادة حبه الأوحد في حياته أم لم تكن فلا ريب في أن حبه الكبير لها كان مثل جذوة أججت عواطفه وفجرت موهبته وأوحت اليه روائع شعرية لا تمل قرائتها ولا يصعب حفظها ومن أجودها و أشهرها قصيدته النونية:

---

(23) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، ص 257

(24) ديوان ابن زيدون ورسائله لعلى عبد العظيم ، ص 82

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا أنسا بقربهم قد عاد يبكينا؟
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص، فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقودا بأنفسنا وانبت ما كان موصولا بأيدنا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأيا ، ولم نتقلد غيره دينا
بنتم وبنا، فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم، ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا [25]

قال ابن زيدون هذه القصيدة النادرة المثال بعد خروجه من السجن وقبل صدور العفو عنه ، يعبر فيها ابن زيدون عن حنينه و شوقه لرؤية محبوبته ولادة وفي نفس الوقت يوضح لها أنه لا يزال وفيا بعد هجرها و يتحدث حديث الملتاع عن أيام وصلها الذي لا يستطيع أن ينساه.

ومما يسترعي انتباهنا في شعر ابن زيدون الوجداني هو طابع الحزن واللوعة لأن أيام الصفاء في حبه لولادة لم تدم طويلا ولو لم يحصل الجفاء و الهجر والفراق بينهما لما حظي روائعه الشعرية المليئة بالحزن والألم والشكوى والكآبة بسمة عالية نادرة المثال ومن هنا لا آتي بشيئ جديد لو قلت إن افتراق العشاق كان ومازال يفجر مواهب الأدباء والشعراء في تاريخ الأدب العالمي .

الحب عند ابن زيدون

---

(25) ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف ،ص 49

الحب في رأي ابن زيدون عاطفة نبيلة والخضوع فيه للمحبوب عز و ليس إذلالا ومع أنه كان ينحدر من قبيلة بني مخزوم القرشية فقد وجد نفسه دون حبيبته الأميرة الأموية شرفا في النسب وأكد لها أن حبه كبير وكل حب عظيم يزيل الفوارق الحواجز بين المحبين وهذه الحقيقة واضحة من بيته التالي:

ماضر أن لم نكن أكفاءه شرفا وفي المودة كاف من تكافينا ؟ [26]

إن مناجيات ابن زيدون لولادة في غربته عنها تنبئ عن صفاته الإنسانية الجميلة ومن أهمها الوفاء والإخلاص و تنبئ عن آلامه وخشيته من غدرها به لعلمه بأن خصومه في قرطبة ، وعلى رأسهم ابن عبدوس، قد أوغروا صدرها عليه طمعا في استمالتها إليهم ، ومن هذه المناجيات المؤثرة مخاطبته إياها عندما بعث إليها الأبيات التالية:

أ يوحشني الزمان وأنت أنسي؟ ويظلم لي النهار و أنت شمسي؟
و أغرس في محبتك الأماني فأجني الموت من ثمرات غرسي
لقد جازيت غدرا عن وفائي وبعت مودتي ظلما ببخس
ولو أن الزمان أطاع حكمي فديتك من مكارهه بنفسي [27]

ومن أهم و أبرز المزايا والخصائص لمناجاته حسن اختياره للأوزان الخفيفة والقوافي الجزلة كما هو واضح من أبياته الآتية:

متى أبثك ما بي يا راحتي وعذابي؟

---

(26) ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف ،ص 51

(27) ديوان ابن زيدون لعلي عبد العظيم،ص 185

ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما أضاء تحت النقاب [28]

قصائد الحب والحنين

أما قصائد حنين ابن زيدون لقرطبة بعد جلائه عنها فإننا نجد فيها لوعة الذين يغتربون عن أوطانهم و أحبتهم ومرابع طفولتهم فالإنسان خلق ألوفا ولا أحسب أن شيئا يضنيه أكثر من فراق الأرض التي أنجبته والأماكن التي قضى فيها صباه مهما امتد به العمر يظل حبها متأججا في ضلوعه و يبقي حنينه إليها مشتعلا في قلبه لقد عاش ابن زيدون نصف عمره في الغربة ولقي كل حفاوة و تكريم في بلاط بني العباد بإشبيليه كما هو معروف وتولى الوزارة فيه كما أحيط برعاية بالغة في زيارته المتعاقبة لملوك الطوائف وأمرائها أمثال بني الأفطس في بطليوموس والأمير إدريس بن المظفر في ملقة ولكن المجد الأدبي والمناصب الرفيعة لم تنسه حبه الأول وهيامه بقرطبة فظل ينشد القصيد تلو القصيد دامع القلب ودامع العين في ذكرى هذه المدينة الجميلة فهو يقول:

يا دمع صب ما شئت أن تصوبا ويا فؤادي آن أن تذوبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا في الغرب إذ رحت به غريبا
عليل دهر سامني تعذيبا أدني الضني إذ أبعد الطبيبا [29]

ولم يمل ابن زيدون إلي الموشحات فليس في ديوانه شيئي منها مع أنها كانت تتناسب الأغراض التي تناولها في الغزل والشكوى ووصف الطبيعة ومجالس اللهو وكان هذا الفن كان شائعا في أيامه وظهر عند الوشاحين المشهورين مثل عبادة

---

(28) نفس المصدر، ص 154

(29) ديوان ابن زيدون و رسائله لعلي عبد العظيم، ص 154

القزاز المتوفي في السنة 422 ه غير أنه نظم المخمسات من القصائد فخالف بها نظام القافية الواحدة ،وصب فيها هيامه بديار صباه وشوقه لموطن هواه فذكر مواقع و منتزهات كانت عامرة في عصره ومنها "الرصافة" التي كانت المنتجع الصيفي الذي بناه الخليفة عبدالرحمن الثالث بجوار قرطبة حيث ولد ابن زيدون ومنها "العقيق" و"عين شهدة"أما "العقيق"

فقد كان جدولا ضمن بستان يقع بالقرب من أحد أبواب قرطبة الواقع في شمالها وأما "عين شهدة" فقد كانت ينبوعا ينبجس من سفح الجبل المجاور لقرطبة يقصده الناس للتنزه و السمرفي الليالي المقمرة ولا بد من الإشارة الى أن المخمسة التي جاء بها ابن زيدون تكاد تكون ملحمة في شعر الحنين والمودة والهيام و تستهل هذه المخمسة بالأبيات التالية :

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع؟ وهل كبد حرى لبينك تنقع ؟
وهل لياليك الحميدة مرجع؟ إذا الحسن مرأى وللهو مسمح
وإذ كنف الدنيا لديك موطا؟ [30]

كان نبوغه في الشعر مواكبا لنهضة أدبية وفنية كبيرة في الأندلس ومع أنه لم يكن شاعر الحب الأوحد في القرن الحادي عشر الميلادي الأ أن اسمه كان المجلى في مجال الشعر و ذلك لأنه أبدع قصائد رائعة نابعة من تجربته العاطفية المثيرة ومعاناته الصادقة في الاغتراب عن مدينته الأثيرة قرطبة ولولا تفرده بعذوبة السبك وجزالة الأسلوب ورقة النبرات وصدقها لما كتب الخلود لشعره في الحب والحنين الذي ما زال يطرب الناس ويشجيهم بعد انقضاء تسعة قرون على زمن إنشاده.

---

(30) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني ص،131

المدح

وفي الواقع أن المدح عند ابن زيدون متصل بحياته السياسية أشد الصلة ولذا عندما نستعرض مدائحه يمكن لنا أن نرسم جانبا هاما من هذه الحياة وقد اتصل ابن زيدون أول ما اتصل ببلاط إلى حزم بن جهور ثم لم يلبث هذا الأميرأن قذف به الي السجن فأخذ الشاعر يرسل إليه مدائحه مستعطفا مسترحما كما يرسل إلى ابنه أبي الوليد وهذه المدائح تتصف بصفة الاستعطاف ويبدو فيها الشاعر شاكيا يريد أن يدفع عنه التهمة التي أودت به الي السجن كما في قصيدته التي أرسلها اليه في نهاية الرسالة الجدية يقول فيها:

أيهذا الوزير ها أنا أشكو والعصا بدء قرعها للحليم
ما عسي أن يألف السابق المر بط في العتق منه و التطهيم
وبقاء الحسام في الجفن يثني منه بعد المضاء والتصميم
أفصبر مئين خمسا من الأيا م؟ ناهيك من عذاب أليم!
ومعني من الضنى بهنات نكأت بالكلوم قرح الكلوم
سقم لا أعاد فيه وفى العا ئد أنس يفي ببرء السقيم
بأبي أنت! إن تشأ تك بردا و سلاما كنار إبراهيم [31]

أما مدائحه في أبي الوليد بن جهور فهي تنم عن إخلاص الشاعر وعن حبه لأبي الوليد فليس هذا عجيبا وذلك لأن أبا الوليد لقد لعب دورا أساسيا في إفراج ابن زيدون عن السجن .

---

(31) ديوان ابن زيدون لعلي عبد العظيم،ص 281

ثم تأتي بعد ذلك مدائحه التي قالها في إشبيلية و أهداها خاصة للمعتضد و المتعمد ففي هذا الدور من حياة ابن زيدون ترتفع مدائحه إلى ذروة كمالها الفني إذ هي تعبر عن صادق عواطفه نحو هذين الملكين الذين أحسنا رعايته و بوآه أرفع المناصب و للشاعر مدائح أخرى قالها في عصرملوك الطوائف ووزرائهم عندما زارهم أثناء تجواله في طرطوشة أو بطليوس أو بلنسية وقبل

أن يستقر في بلاط بني العباد وهي مدائح يبدو عليها النضج و الإخلاص و له أيضا مدائح أخرى في بعض أصدقائه و أساتذته .

وفي الواقع أن المدح عند ابن زيدون لم يكن طلبا للمال وإنما كان بوجه عام طلبا للجاه ولاطلاق سراحه استهل ابن زيدون على الغالب مدائحه بالغزل ثم أخذ يعدد محامد الممدوح و مآثره متبعا الطريقة التقليدية وهو في هذا الخصوص يتبع أساليب القدماء ولا تبدو عبقرية الشاعر إلا في القصائد التي أملتها العواطف الصادقة .

الاستعطاف والشكوى

وشعر الاستعطاف والشكوى على قلته يعد من الأغراض التي أجاد بها ابن زيدون و صدر بها عن عاطفته و هذا الشعرلا يوجد إلا خلال غزله ومدحه و قلما انفرد هذا الشعر في قصائد خاصة إلا القصيدة الخالدة التي أرسلها إلى صديقة أبي حفص بن برد والتي كانت درة في نسجها و نغمتها الصافية الهادية المتألمة وفيما يلي ننقل بعض أبيات هذه القصيدة:

ما على ظني باس يجرح الدهر و ياسو
ربما أشرف بالمر ء على الآمال ياس
نلبس الدنيا ولكن متعة ذاك اللباس

يا أبا حفص وما سا واك في فهم إياس [32]

والأغراض الباقية

لقد اختار ابن زيدون الأغراض الأخرى للشعر كالرثاء وقال مثل هذا الشعر على الغالب في بعض ممدوحيه أو من لاذ اليهم بالفراروبعض الأحيان جاء بكاء على صديقه الراحل ولكنه أحيانا اتخذ هذا الفن كوسيلة للمدح المقيم كما فعل في رسائل ابن حزم بن جهورإذ هو يقول:

ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر وأن قد كفانا فقدنا القمر البدر
وأن الحيا إن كان أقلع صوبه فقد فاض للآمال في إثره البحر
وإن يك ولى "جهور" ، "فمحمد" خليفته العدل الرضى وابنه البرّ [33]

ونفس الأسلوب قد اختار في رسائله الموجهة إلى معتضد:

سرك الدهر وساء فاقن شكرا و عزاء
كم أفاد الصبر أجرا واقتضي الشكر نماء [34]

قد نظم ابن زيدون بعض المقطوعات في مناسبات مختلفة كالتهاني والإخوانيات و وكذلك نجد بعض المقطوعات الخفيفة في ألغاز و الأحاجي أجابه عليها المعتمد محاورا ولكنه في جميع هذه الأغراض الثانوية لم يصدر عن حسه ولم يستلهم شاعريته.

---

(32) ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف ص 67

(33) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، ص 150

(34) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، ص 75

ميزاته الفنية

إن الميزة الأولى التي اتسم بها شعر ابن زيدون هي أن قصائده شديدة الصلة بحياة الشاعر فقد رأينا إبن زيدون محبا لولادة مشغوفا بها ورأيناه أيضا خلال هذا الحب يتقلب في مناصب الحكم و الوزارات و يندس في حمأة السياسات ثم يلقي به في السجن ثم تعود إليه الحرية و يواصل لعب دوره في قصور الأمراء مقربا منهم معززا في ظلال عطفهم و رعايتهم أو بعيدا عنهم طريدا فجاء شعره صورة لهذه الحياة التي يتوزعها الحب والسلطان فيمكننا أيضا أن ننظر إلى ابن زيدون من وجهين: فهو يبدو لنا شاعرا ذاتيا من ناحية و يبدو لنا شاعر بلاط من ناحية أخرى.

أما الشاعر الذاتي فيتجلي بوضوح في غزله و لهوه واستعطافه و شكواه ولئن كانت الحياة التي عاشها قد فرضت عليه هذاالون من الشعر فإن تجاربه النفسية قد عدلته و منحته صورته الجديدة ولئن كان يرغب من وراء غزله إرضاء تلك التي يحبها و يود استعطافها فذلك لأنه يرى فيها صدى لانفعالاته و سببا لبقائه لهذه الدنيا إنه محب و لا ريب في أن حبه لولادة يترأى لنا لاهيا عابثا في مطلعه ثم لم يلبث أن انقلب إلى جذوة نار تأكل قلب الشاعر و عندما شعر بالازورار و اللعب و الاستهزاء اصابته منها فهنا بدأت تجربة الاخلاص لأنه بدأ يشعر خلالها بلذة قد تعوض عليها ما فاته من حب ضائع إنه بقي يذكرها طول حياته حين لم تحفظ وده وتغيرت عليه و أنزلت في قلبها منافسه هذه الذكرى الدائمة الطويلة تمنح هذا الشعر الذاتي لونا يحببه إلى نفوس الناس ففيه الصدق وفيه شيئ آخر ليس بالأنين الممض التي اعتاد الناس سماعه من شعراء الغزل العذري إنه بكاء ولكن الناس لا يسمعون النحيل ولا تعتريهم الكآبة إنه شوق و لهفة إنه شعر يرسم أجواء الماضي الزاهر.

أما الوجه الثاني الذي تقنع به ابن زيدون فهو شاعر البلاط فقد دفعه هذا الموقف طموحه و ظروفه فاتخذ له العدة اللازمة ورأيناه يخضع لصفات شاعر القصر بل لعله قد تدرب عليها منذ نشأته فهو إلى جانب ميله الطبعي إلى هذه الحياة المترفة كان يتمتع بثقافة شعرية و نثرية تجعل منه شاعرا ناثرا يستطيع أن يحتل هذا المقام.

ولا شك في أن شعر ابن زيدون يعكس بيئته و يمثل ميلها إلى اللهو و المجون و شرب الخمر و مجالسة النساء ولولا هذه البيئة لما استطاع وهو الوزير أن يجاهر بحبه هذه المجاهرة بل لعله استمد هذه الشجاعة من صراحة معشوقته التي صورت بيئتها هي أيضا خيرتصوير.

ولم يشذ إبن زيدون عن عادات شعراء الأندلس في تأثرهم بالطبيعة فقد كانت الطبيعة مسرح حبه فإذا خلا إليها ذكرته رياضها بنعيم ذلك الحب في ظلالها و كثيرا ما استمد معانيه و أخيلته الغزلية منها كما هو واضح من الأبيات التالية:

يوم ، كأيام لذات لنا انصرمت بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى بكت لما بي فجال الدمع رقراقا [35]

وهكذا فالطبيعة والشاعر إلفان لا يفترقان والحب عنده أساس لتعلقه بالطبيعة فيجعل الشاعر لحن المناجاة سبيلا إلى تشخيصها و الارتماء وبهذا يقترب من

---

(35) ديوان ابن زيدون للكامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة، ص 258

بعض شعراء الغنائية والرومانسية البارزين الذين صوروا حبهم في أحضان الطبيعة ورشفوا في خمائلها الحب والحنان.

الخاتمة

الخاتمة

لا يختلف اثنان في أن ابن زيدون كان من كبار شعراء الأندلس فآراء النقاد والباحثين تجتمع على أنه من الطبقة الأولى من شعراء الأندلس و مما يبدو أنه استصفي غزل العباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد و غيرهما و أخذ ديباجة البحتري وحسن سبكته و نصاعة أسلوبه و أخذ طول نفس ابن الرومي و تدفقه حتى قدم آخر وأحسن المعنى الذي يريده وقد حدثت له حادثتان ألهبتا قلبه و عواطفه أولاهما حبه لولادة فقد هام في حبها و مرّ بكل أنواع التجارب في الحب من لذة و وصال و ألم وفراق و أحاديث نفس و ثانيتهما: كثرة حساده الذين دسّوا له الدسائس و شوهوا سمعته عند الأمير حتى سجنه فذاق ألوانا من العذاب في أيام سجنه ولا ريب في أن له قدرة على صياغة أدق المشاعر في شعر جميل و أسلوب جذاب ومع هذا لم يخل ديوانه من قول الشعرالركيك في بعض الموضوعات التقليدية مثل المديح و الهجاء.

لقد عاش ابن زيدون ظروف متأزمة و هذا التأزم قد حدث بعد ما فرّ هشام الثالث عن قرطبة في سنة 422هـ كان أبو الحزم جهور بن محمد جهور وزيرا له فخاف أهل قرطبة من عواقب الاضطراب والفوضى وبعد البحث و التمحيص وجدوا في أبي الحزم بن جهور حاكما قديرا فولوه أمر المدينة وهكذا قد أنشأ أبو الحزم في قرطبة دويلة من دويلات الطوائف.واتصل ابن زيدون بهذه الدويلة الناشئة و أصبح وزيرا لأبي الحزم جهور وبهذا الطريق التقى شراع ابن زيدون بشراع ولادة بنت المستكفي.

وأعظم الأحداث أثرا في حياة ابن زيدون وفي أدبه كان اتصاله بولادة أما ولادة فكانت فتاة جميلة بيضاء شقراء مائلة إلى الحمرة كما كانت ذكية متأدبة بالفنون والأداب قوية الشخصية كان من المنتظر أن يقع ابن زيدون في حب ولادة وكذلك كان من المنتظر أن تستجيب ولادة لدعوة الحب التي تمثلت في شباب ابن زيدون وفي منزلته الاجتماعية و مكانته الأدبية ولعل ولادة كانت ذات آمال سياسية فساقتها هذه الحقيقة إلى أن توثق صلتها به و خصوصا بعد أن أصبح ابن زيدون أثيرا في بلاط بني جهور.

بدأ الحب بين ابن زيدون و ولادة بالهدوء ولكن سرعان ما اشتعل بأشد ما يكون من السرعة وبأشد ما يكون من العنف ومع الاسف انه لم يعش في صفائه ووفائه لفترة طويلة وبدأ يفتر بمثل السرعة التي كان قد نشأ بها و سرعان ما تغيرقلب ولادة على ابن زيدون.

وحاول ابن زيدون أن يسترد عطف ولادة ببراعته الشعرية ولكن ولادة لم تأبه به و لاريب في أن حب ابن زيدون لولادة قد أوحى إلى ابن زيدون أجمل قصائده و لقد أخطأ ابن زيدون في الطريق التي أراد أن يسلك بها إلى قلب ولادة كما ضل عنترة الطريق إلى قلب "عبلة" لما ظن أن الفخر بنفسه وبقوة طعنه يقربه من قلب الفتاة اللعوب. إن ابن زيدون و عنترة لم يرزقا براعة امرئ القيس وبراعة عمر بن أبي ربيعة في خطاب المحبوبة.

كثر حساد ابن زيدون وخصومه في بلاط بني جهور وفي خارج بلاط بني جهور وكان أشد هؤلاء عداوة له و أعظمهم أثرا الوزير أبو عامر بن عبدوس

فكتب ابن زيدون رسالته الجدية و حاول فيها أن يحط من مقام ابن عبدوس في عيون ولادة ومع أن هذه الرسالة راجت بين الأدباء فان ولادة نفسها لم تتأثر بهذا الأسلوب الجديد فلاهى رقت للمحب القديم ولاهى نفرت من المحب الجديد وأصبحت هذه الرسالة سببا لغيظ ابن عبدوس فجعل يلصق بابن زيدون تهما منها أنه كان ميالا إلى رد الحكم إلى بني أمية فأمر أبو الحزم جهور بحبس ابن زيدون.

جعل ابن زيدون يوالي القصائد إلي أبي الحزم وإلي رجال آخرين ليشفعوا له عند أبي الحزم و لكن لم ينجح أحد منهم أن يخلصه من السجن ففر ابن زيدون من السجن وطاف في قرطبة مختفيا لعله يلقى ولادة فلم يلقها فكتب إليها قصيدته المشهورة التي تستهل ب "أضحى التنائي بديلا من تدانينا" فلم ترد عليه ثم بعث إليها بقصيدة أخرى تبتدأ "إني ذكرتك في الزهراء مشتاقا" فلم ترد عليه أيضا و أخيرا بعث بقصيدته الطائية "شحطنا و ما للدار نأي ولا شحط" وبعد فترة توجه إلى شيخه القديم أبي بكر مسلم بن أحمد و شفع له إلى أبي الحزم فنجعت شفاعته واستعاد ابن زيدون رضا أبي الحزم واستقر في قرطبة.

وهكذا واجه ابن زيدون مشاكل كثيرة من قبل حساده ولكنه قد تحمل هذه المصائب كلها بالصبر والاستقامة.

قلما يظفر الإنسان بأديب عربي يحمل لواء الزعامتين في النظم والنثر فان أغلب ما نشاهده أن يبدع الأديب في أحد النوعين إبداعا يغطي على إبداعه في الآخر أما ابن زيدون فكلما نقرء نثره لا نكاد نصدق أن شعره يتسامى إلى مثل هذه المرتبة العالية فاذا عدنا إلى شعره ينسينا إبداعه روعة ما وجدناها في نثره

و هكذا لا نكاد نقرأ قطعة مختارة من شعره أو نثره حتى تملأ أنفسنا بهجة و سرورا و ينسينا سحرها كل شيئ آخر وليس من الإنصاف أن نقول إنه شاعر ممتاز فحسب أو ناثر ممتاز فقط ومن الأجدر بنا أن ننصفه بصفات عديدة و نقول إنه زعيم من زعماء البيان العربي.

لقد قضى ابن زيدون حياته بين الدرس و التحصيل و التجارب والاختبار والاتصال بكبار ساسة عصره و صهر قلبه حب ولادة و حنينه إلى وطنه و أثر كل هذا في نفسه الشاعرة المرهفة الحس ما امتازت به الأندلس من جمال التربة و صفاء الجو ولقي من السعادة و التمتع بالحسن أشهى و أعذب ما لقي محب ثم لقي من لوعة الصد و الهجران أشقى و أمر.

ولقد نعم أيضا بصولجان السلطة والقوة حينا من الدهر ثم ألقي في السجن بين الأشرار و المجرمين زمنا غير قليل.

ولقي من كيد المنافسين و الحساد مصائب و متاعب كثيرة إلا أن هذه كلها قد ساعدته في قرض قصائد لا نجد مثيلاتها في الأدب العربي كله إلا نادرا والله هو الموفق والمستعان.

المراجع والمصادر

المصادر والمراجع

الكتب العربية

1. **ابن زيدون:** للدكتورشوقي ضيف،دار المعارف بمصر 1890
2. **أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث،حياتهم و آثارهم نقد آثارهم:** للأستاذ بطرس البستاني،الطبعة السادسة بيروت ، لبنان، آذار 1968م
3. **الأدب الأندلسي:** للدكتور الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، 1990م
4. **الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه:** للدكتور مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين 1983م
5. **الأعلام:** للأستاذ خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين،ص.ب 1085 بيروت ، الطبعة السابعة أيار (مايو) 1986
6. **بلا غة العرب في الأندلس:** للدكتورأحمد ضيف،القاهرة 1924م
7. **تاريخ الأدب العربي:** للدكتورعمر فروخ (الجزء الرابع) دار العلم للملايين، بيروت ،لبنان
8. **تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي:** للدكتورشوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة الطبعة الحادية عشرة
9. **تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة:** للدكتور إحسان عباس 1969 طبعة ثانية دار الثقافة ،بيروت ،لبنان
10. **تاريخ آداب العرب:** للدكتورمصطفى صادق الرافعي،الجزء الثالث، دار الكتب العربي، بيروت،لبنان 1974م
11. **ديوان ابن زيدون و رسائله:** للأستاذ علي عبد العظيم مكتبة نهضة مصر بالفجالة 1957

12. **ديوان ابن زيدون رسائله أخباره شعر الملكين:** للدكتور كامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، بمصر 1932م

13. **دائرة معارف الإسلامية** : ج، 1

1) محمد ثابت الفندي 2) أحمد الشنتاوي
3) ابراهيم زكي خورشيد 4) عبد الحميد يونس
بوذر جميري،1933 ، تهران

14. **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:** للأستاذ ابن بسام،نشرت بكلية الأداب بجامعة القاهرة ثلاثة مجلدات،القاهرة 1945

15. **سير أعلام النبلاء:** للأستاذشمس الدين محمد أحمد بن عثمان الذهبي، الطبعة الأولى 1405 /1984م مؤسسة الرسالة ،بيروت

16. **طوق الحمامة في الألفة والآلاف:** للأستاذ ابن حزم ، طبعة دمشق تم طبعة القاهرة 1950

17. **ظهر الإسلام:** للأستاذ أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت

18. **الفن و مذاهبه في الشعر العربي:** للدكتورشوقي ضيف، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت 1956

19. **في الأدب الأندلسي:** للدكتور جودت الركابي، دار المعارف بمصر 1966م

20. **المعجب في تلخيص آخبار المغرب:** للأستاذ عبد الواحد المراكشي، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئوون الإسلامية

21. **معجم الأدباء أو إرشاد الأديب إلي معرفة الأديب:** للأستاذ ياقوت الحموي، 20 جزءا القاهرة 1938

22. **المنجد في اللغة والأدب والعلوم:** للأستاذ لويس معلوف اليسوعي دار المشرق بيروت، لبنان 1986 الطبعة الرابعة والعشرون

23. **المفيد في الأدب العربي:**

1) جوزيف الهاشم 2) أحمد أبو سعيد

3) أحمد أبو حاقة 4) إيليا حاوي

دار العلم للملايين ، الطبعة 14-1988م،لبنان،بيروت

24. **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب:** (المجلد الأول) للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، دار صادر بيروت ، الطبعة الأولى 1968م

25. **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان:** للأستاذ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ،دار صادر بيروت

الجرائد والمجلات

1. العربي مجلة شهرية عربية تصدر في الكويت ، العدد 7 ذو القعدة 1959

2. العربي مجلة شهرية عربية تصدر في الكويت ، العدد 568 مارس 2006

الكتب الانجليزية

1- The story of Islamic Spain by Azizur Rahman, Goodword books,Nizamuddin west Market New Delhi, 2001

2- Spanish Islam (A History of the Muslims in Spain) by Reinhart Dozy Goodword books.Nizamuddin west Market, New Delhi, 2001

3- The Literature of Al- Andalus by Maria Rosa Menocal Cambridge University Press, 2000

Al-Janib -ul- Ghinaio fi Sher

Ibn Zaidun

Dirasah Tahliliyah

(Lyrical Aspect in the Poetry of Ibn Zaidun:An Analytical Study)

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University
in partial fulfillment of the requirements
for the award of degree of
Master of Philosophy

by

MOHD.ABRARUL HUQUE

Supervisor

PROF.M.A.ISLAHI

Center of Arabic & African Studies
School of Language, Literature & Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi
2006